

الجنهاذا الرسول صلى الله عليه وسلم

لصاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ

عبد الجليل عيسى أبو النضر

شيخ كلية اللغة العربية



القاهرة

(١٣٦٩ هـ - ١٩٥٠ م)

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

دار الخياء للكتاب العربي

عيسى البابي الحلبي وشركاه



الْجَنَّةُ لِلْأَنْبِيَاءِ مُحَمَّدٌ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

دار الحياة الكويت العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه

الهدايا

إلى من أعر الله به الإسلام ، عمر بن الخطاب ! .
 روى ابن سعد بإسناد صحيح عن نافع أن عمر بن الخطاب رضى الله
 عنه بلغه أن قوماً يأبون الشجرة^(١) فيصلون عندها فوعدهم رضى الله عنه
 ثم أمر بقطعها فقطعت .

قال الحافظ ابن حجر : وبيان الحكمة في إحماؤها هو أن لا يحصل بها
 افتتان لما وقع تحتها من الخير . ولو بقيت لما أمن تعظيم بعض الجهال لها ، حتى ربما
 أفضى بهم إلى اعتقاد أن لها قوة نفع أو ضرر ، كما راه الآن مساهداً فيما هو دونهما .

هذا نذر قلبل من جلائل أعمال الفاروق رضى الله عنه التى يحافظ بها
 على أهم أصل من أصول الإسلام . وهو إفراد الله وحده بالتقديس والعبادة .

فإلى روح هذا الصحابى الجليل ، والمرشد الحكيم ، والقائد البصير أهدى
 رسالتى هذه . وأرحو الله أن ينعم بها كما مع بصنيع الفاروق قبلها ، وأن يقي
 المسلمين شر الوقوع فيما وقع فيه من كان قبلهم ! .
 إبه وحده ولى التوفيق والهداية إلى سواء السبيل .

[١] التى حصلت تحتها بيعة الرضوان عام الحديبية ، وحاء ذكرها فى القرآن (لقد رضى
 الله عن المؤمنين إذ يبايعوك تحت الشجرة . . .) آية ١٨ من سورة الفتح .

مُقَدِّمَةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد حاتم النبيين الأمين وعلى
إخوانه الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين . وبعد :

فإن كل من اطلع على كتاب الله الكريم، وعلى سنة رسوله صلى الله عليه
وسلم، يدرك في وضوح عمايتهما عقيدة « التوحيد » ، وحرصهما الشديد على
إفراد الله بالكمال في عالم الوجود، واستحقاقه وحده دون غيره من الموجودات
تقديس المخلوقين له، وعبادتهم إياه . ولتفرده في الكمال كانت ذاته الحق وقوله
الوحي لا يشوبه خطأ ولا وهم .

وقد ظل رسوله صلى الله عليه وسلم يحاهد حل حياته الشريفة في سبيل
عقيدة التوحيد حتى أرسى أصولها، ودعم بناءها، وأحاطها بسياج قوى من قوله
وعمله . ولم يشغله شاغل عنها طول حياته، ولم يصرفه عن تدبير المؤمنين والناس
بها كافة أى صارف مهما عظم شأنه ، وأخذ من نفسه مأخذاً قويا . ذلك أن
في عقيدة التوحيد وحمل البشر على عبادة إله واحد أولى دلائل الصدفى على أن
صاحب الدعوة بها رسول الله حقاً، وعلى أن الدين القائم عليها دين الله صدقاً .
فما كانت قدسه التشرية أيام سيطرة الجهل والبدائية عليها من آلهة متعددة
لم يكن إلا وليد المصادفة أو انقياداً لعصية تتصل بالبيئة أو الجنس بصفة .

وما كان الشترك بعد إرسال رسل الله إلا نتيجة لعناد الإنسان أو غروره، أو حرص بعض الناس على استغلال البعض الآخر من يملكه ضعف الشخصية أو يستهويه بعض متع الدنيا .

وكانت دعوة التوحيد اشارة صدق الداعي إليها على أنه رسول الله، ودليل صدق الدين المؤسس عليها على أنه دين الله، لما ينطوى عليه من جملة مظاهر :
أولا — أن الداعي لذلك على هذا النحو لا يطلب لنفسه ميرة خاصة غير أنه رسول الله . ولا يطالب لنفسه تقديساً من التابعين لدعوته ، كما لا يطالب لقوله في غير حدود الرسالة التي أمر بتبليغها إلى الخلق عصمة مطلقة ، ولتصرفاته في غير دائرة هذه الرسالة تزيهاً عاماً .

فعمامة الداعي متركزة في سميع رسالة الله ، ليس له وراء هذا التبليغ مطمع شخصي ، ولا هدف يحلب من تحقيقه له زحرف الحياة الدنيا من حاه أو مال أو سلطان .

وثانياً — أن حمل الجماعة البشرية على الاعتقاد بالله واحد هو صاحب التدبير المطلق في الوجود ، وعلى قصر العبادة عليه ، والطاعة له رفع لهذه الجماعة من ظلمة حرافات المصادفة وأساطير الزعماء

الإسانيين فيها . وتوحيه شديد لها في الحياة ، تعمل في كون
الله طمق وطرنه التي فطر الناس عليها، لا عائق من حهل بالواقع
أو من تغرير إسان يحول بينها وبين أن تهمدى بنور الله
في عالمه .

وتالماً — أن هذا الاعتقاد نفسه يؤدي إلى شعور الفرد المؤمن بحريته
الفردية، وكرامته الإنسانية، في حدود وصايا الله من أوامرو بواهى .
ووصايا الله الرب المعبود وحده، الكامل كمالاً مطلقاً، لا تنطوى
إلا على حير الفرد وحير الجماعة .

فرسالة الله الحققة نتجه إداً إلى تعريف الأفراد بقيمهم الدائية وكراماتهم
الشخصية، ودفع استغلال الناس بعضهم لبعض . وذلك لا يكون إلا عن طريق
نقل التقديس والعمودية من دائرة الإنسان وعالمه إلى من هو أرفع من الإنسان ،
ومن عالمه إلى الذى خلقه فسواه ، وبالتالى عن طريق خلق روح المساواة
بالكرامة الإنسانية في الجماعة البشرية .

ولأن محمداً صلى الله عليه وسلم كان رسول الله حقاً لم يستهوه أن يرى
من المؤمنين به وبدعونه نوعاً من الإكبار لشخصه يسمو به عن مبرلة
الإسان . وعدم انقياده لذلك كان وفيّاً لدينه، ولكتابه الكريم ، وآياته التي
ينطق بعضها بقول الله العظيم : « قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىٰ إِنَّمَا

إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا^(١)»، كما كان بذلك أيضاً محارباً في نفسه أمراً غزياً في الإنسان هو الميل إلى الظهور.

وكان يمت هذا الإكبار غير العادي لشخصه، ويدعو إلى تحننه، حشية أن يؤدي إلى تفرقة في دين الله نفع منها إلى هذا الدين الحنيف ما نفذ منها من قبل إلى دين عيسى عليه السلام مما خرج رسالته عن أن تكون رسالة الله الخالدة.

لذلك نصر عليه السلام أمته بأمر هذه الثغرة، وحذر وشدد في التحذير من أن يجر تعظيمه إلى الوقوع في الشرك.

دخل عليه يوماً رجل يرجف خوفاً، وهم بالوقوع على قدميه صلى الله عليه وسلم. فقال له: رويدك يا هذا! إنما أنا بشر، أنا ابن امرأة أعرابية كانت تأكل القديد^(٢).

وروى البخاري عن عمر بن الخطاب أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم! فإنما أنا عبده. فقولوا: عبد الله ورسوله». قال ابن حجر: وسبب قوله صلى الله عليه وسلم هذا ما وقع من معاذ ابن جبل، فقد روى أحمد في مسنده عن معاذ ابن جبل أنه لما رجع

[١] سورة الكهف، آية ١١٠.

[٢] اللحم المجفف يحفظ ليؤكل عند عدم وجود الطرى. يريد أنها كانت غير مترفة

من الذين قال يا رسول الله : رأيت رجالاً باليمن يسجد بعضهم لبعض ، أفلا يسجد لك ؟ .

وكتيراً ما كان صلى الله عليه وسلم يكرر قوله : « إنما أنا بشر » كلما شعر بمبالغة المؤمنين في تعظيمه . ولم يشغله عن التنبيه على حطر ما تؤدي إليه هذه المبالغة شاغل ما . وكيف يشغله شاغل عن ذلك وهو رسول الله . لا ينبغي إلا أن يعيّن في حدود الرسالة لله . وطاقها لا يحتمل تعظيم موجود آخر سواه ؛ ربما يؤول تعظيمه إلى الاعتقاد بمساواته به جل جلاله حتى في سكرات الموت كان يؤكد بشريته ، ويحدد تبعاً لذلك منزلته من الله الواحد الذي لا رب غيره . روى مسلم عن حنّـب بن عمـد الله قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يموت نحـمـس يقول : « إن من كان قلبكم كابوا يتخذون فنور أنبيائهم وصالحهم مساحـد . ألا فلا تتخذوا القبور مساجد . إني أهيأكم عن ذلك » وفي رواية البخاري عن عائشة وابن عباس قال : لما نزل ^(١) رسول الله صلى الله عليه وسلم طفق يطرح خيصة له على وجهه ، فإذا اغتم بها كشفها عن وجهه ، فقال وهو كذلك : « لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » ، يحذر ما صنعوا .

[١] بالنساء لا الماعل والماعل محذوف أى الموت والمراد مقدمانه . وفي رواية بالنساء للمفعول ويكون نائب الماعل الجار والمحرور .

ذلك حال الرسول صلى الله عليه وسلم مع نفسه إزاء ربه وجماعة المؤمنين به . لم يدع شائبة عموض تعتور علاقته بخالقه . فوضح أنه رسول الله ومع ذلك هو إنسان . لا يسموه احتياري الله له إلى أن يصير له قدسية الله وعظمته وقوله تعالى : « وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤَيِّتَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوءَةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّاءَ بِنِيَّانٍ كُنْتُمْ تُعَاطُونَ الْكِتَابَ وَمِمَّا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَاءَ أَيَأْمُرُكُمُ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ » (١) من آيات رسالته التي حملها للناس كافة . وكما أكد هذه العلاقة في حياته الشريفة طاب أن يراها المسلمون بعده حتى لا يكون مصيرهم مصير النصارى واليهود الذين استحقوا لعنة الله بسبب ما حرفوا في دين الله مما يتعلق بمنزلة أنبيائهم فاتخذوا قبورهم أمكنة للعبادة .

لكن المؤمنون بأى دين من الأديان لا يبقى إيمانهم به على حال واحدة ولا فهمهم له على منط واحد .

ولو بقي إيمان الجماعة على حال واحدة وفهمها الدين على منط لا يتغير لما احتاج دين الله إلى رسل يأتي الواحد منهم إثر الواحد ، ولما احتاج دين حاتم

[١] ٨٠/٧٩ آل عمران .

الأنبياء والمرسلين إلى تحديد الدعوة إليه كما نصح القرآن الكريم بقوله :
« وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ نَدْعُوْنَ إِلَى الْخَيْرِ وَنَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَنْهَوْنَ
عَنِ الْمُنْكَرِ »^(١) .

الدين في أساسه واحد لا يتغير . وأفهام المؤمنين به فيه هي التي تتبدل
وتتغير ، حسب العوامل التي يوحى بذلك من نبتة ثقافية ، واجتماعية ومواطن
جغرافية . إلى غير ذلك مما يؤثر في اختلاف الناس واختلاف ميولهم وأحاجاتهم .
وقد يُنكر الدين في أساسه فهم بعض المؤمنين به لمبادئه أو لمهمته الرئيسية إذا
اتسعت الفجوة بينهما . ومقياس ذلك أن يبدو انحراف هذا الفهم عن أصول
الدين التي تسر بها رسول الدين وأتباعه الدين صاحبوه في الحن وصحوا بأنفسهم
وأموالهم وأولادهم في سبيل بصرتة وإعزازه .

فالمسلمون الذين يؤمنون بأن علم اللوح والقلم من علم الرسول الكريم ،
ويرون أن الدنيا والآخرة من فصل حوده صلى الله عليه وسلم ، أو يعتقدون أنه
كان يعلم كل ما كان وما يكون ، يعكسون آية رسالته ويصعونه فوق
الرسول ويشبهونه بالله أو يجعلونه شريكاً له . وليس ذلك مما دعا إليه
الرسول صلى الله عليه وسلم في تحديد منزلته كما أمره ربه . وليس ذلك
مما يستقيم مع مثل هذه الآية الكريمة : « قُلْ إِمَّا أَنَا شَرٌّ مِّثْلَكُمْ يُوْحَىٰ إِلَىٰ

إِذَا إِلَهُكُمْ إِلَهُ وَاحِدٌ مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ
بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا .

لكن هذا الذى يتنافى مع مثل هذه الآبة الكريمة آمن به بعض
المسلمين اليوم وبالأمس وربما فى العد أيضاً . وإيمانهم به لا يزيد فى قدسية
الرسول صلى الله عليه وسلم بحسب، بل يحمل لقوله وعمله العصمة حتى ما كان
منهما خارجاً عن دائرة رسالة ربه . ويصبح محمد بن عبد الله بناء على ذلك
ليس ذلك الإنسان المصطفى الذى كلف رسالة الله بل يؤول أمره إلى ما آل
إليه أمر عيسى ابن مريم حين ما نظر إليه بعض أتباعه على أنه إنسان حلت
فيه روح الإله وأن له طبيعة فوق طبيعة الإنسان؛ له طبيعة الإله والإنسان
معا . فصورته الظاهرة صورة إنسان، وما كان وراءها يرجع إلى الله ويتفرع
عنه . وكانت هذه النظرة إلى عيسى سبب بقديسه فمألهم من مسيحي القرن
الرابع الميلادى كما كانت سبباً فى أن عُد الاتحاد المسيحي الذى ينصح بها
تحريراً للمسيحية التى هى دين الله لأن دين الله لا يدعو إلى عبادة غير الله
ولا يمنح العصمة لإله .

ومن الدعوة إلى الخير التى طلبها القرآن الكريم أن يكون فى كل جيل
إنسان من يبين لخاصة المؤمنين قبل عامتهم أهداف الإسلام الرئيسية . وفى

مقدمتها علاقة الرسول صلى الله عليه وسلم بالله جل جلاله . وتحديد هذه العلاقة بالذات كما جاء بها القرآن كانت من الآيات الواضحة كما أسلفنا على أن الإسلام دين الله الحق لا دخل للإنسان فيه . ووجودها واضحة في حيل من أحيال المسلمين أماراة على أنهم لم ينحرفوا عن الإسلام الذى هو دين الله . كما أن وجودها مشوهة في حيل آحر علامة على أن هذا الحيل له من الإسلام اسمه محسب .

لهذا حرصت على أن أنتناول حابياً من جواب هذه العلاقة في حدود ما جاء به القرآن وصح من الحديث الشريف . هذا الجانب هو قول الرسول وعلمه خارج دائرة الرسالة الأولية . لأؤكد ما أكدته الإسلام الذى هو دين الله من أن محمد بن عبد الله كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومع ذلك فيما وراء الرسالة كان إنساناً . فله العصمة فيما أرسل به للناس من قبل الله من وحى مملوء وغير مملوء ، وله حكم الإنسان المحتهد فيما أتى به من قول أو فعل بعد ذلك .

وسأعرض إلى أن هذا الشأن لنديننا الكريم كان شأن الأنساء والرسول السابقين لا يختلف فى شىء عنه . لأن الوضع عند الجميع سواء . كلهم رسل الله وكلهم أناسى من مخلوقات الله احتيروا فى أزمنة مختلفة وفى أحيال متعددة

لأداء رسالة الله الواحدة الخالدة التي لا تختلف في زمن عنها في زمن آخر ولا في حيل عنها في حيل آخر « قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنْ الرُّسُلِ . . »^(١).

وهذا الازدواج في النظرة إلى رسول الله لا يغير من تقديره واحترامه في نفوس المؤمنين بدينه . فلم يرل هو الإنسان المصطفى وليس بالإنسان العادى كرمه ربه باختياره لأداء رسالته، فكرمه المؤمنون به لماله من منزلة خاصة عند الله . لكن من جهة أخرى من حق الله عليه وعلى المؤمنين به أن يعرفوا حدود هذه المنزلة، فلا يشركوه مع الله في درجة واحدة عن طريق إفعال المعنى الإنسانى فيه

فالرسول صلى الله عليه وسلم إذا أضيف إلى الخلق كال في السماكين وكان الجميع يدب على سطح هذه الغراء . وإذا أضيف إلى ربه صاحب الفصل عليه كان بشرا ككل البشر حاصعاً لقوة القاهر الغالب الذى احتص بالكمال وحده .

والله الموفق والمعين

القاهرة في { صفر سنة ١٣٦٨
ديسمبر سنة ١٩٤٨ }
عبد الجليل عيسى أبو النصر

البَابُ الْأَوَّلُ

الفصل الأول

الاجتهاد مظهر من مظاهر الإنسانية في الرسول :

هناك عدة مظاهر تم عن إنسانية من يختاره الله لرسالته ، وندل على أن اصطفاؤه لأداء هذه المهمة القدسية لا يحرجه عن طبيعة الإنسان ، يجوز عليه ما يجوز على أى إنسان آخر فيما عدا ما كلفه الله بتبليغه للناس .

فهو يأكل قبل الرسالة وبعدها كما يأكل الإنسان ، وبنسل قبل الرسالة وبعدها كما بنسل الإنسان^(١) ، ويدفع عن نفسه ضرر الجوع واعتداء المعتدى بوسيلة أو بأخرى من الوسائل التي اعتاد أن يسلكها الإنسان في دفع الضرر ودفع الاعتداء عنه . يحترف ويتجبر على نحو ما يحترف الإنسان ؛ يتجبر لتأمين عيشه وعيش من يعوله . يقاوم المعتدى ويهاجمه إن ظن الغلبة عليه ، ويميله إلى حين حتى يستطيع رده بسخفه أو عن طريق جمعٍ من أعوانه .

مناضل في الحياة ويكافح من أجل هدفه فيها ، ويتخير لنضاله وكفاحه ما يتخيره العاقل المتروى من الإنسان . يسلك لإقناع الغير سبيل الإقناع حسما ينجلي له من نفسه ودحيلة أمره ، ويسلك لمحاربة المعاند من خصومه وأعدائه طريق الحرب حسما تتطلب الظروف والمواطن .

[١] في رواية البخارى : « لى أقوم وأنام ، وأصوم وأفطر ، وأتروح النساء . . . »

ولم يشأ الله أن يخرج به عن طبيعة الإنسان وخصائصه لأنه أراد ، حسب ما في علمه ، أن يكون رسوله المصطفى لتبليغ رسالته في جيل أو في أمة أو للناس كافة . والله تعالى قادر على أن يخرج به عن هذه الطبيعة ويمنحه من الوسائل في الحياة والكفاح فيها ما ليست للإنسان . لكنه شاء حل حلاله أن يبقى رسوله للناس من الناس ؛ لا يتحول بالرسالة من إنسان إلى ملك فضلا عن أن يصل بها إلى مرتبة فوق مرتبة الرسالة والملك . .

وهذا قول الله جل جلاله حكاية عن نوح عليه السلام في رده على قومه لما قالوا له : « مَا بَرَأكَ إِلَّا تَشْرًا مِثْلَنَا » : « لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي حَزَانٌ مِنَ اللَّهِ ، وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ ، وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ ^(١) » . وقوله تعالى لنبيينا عليه الصلاة والسلام : « قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي حَزَانٌ مِنَ اللَّهِ ، وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ ... » ^(٢) .

وقد تعنتت كمار قريش مع نبيينا صلى الله عليه وسلم وطلبوا منه ما يدل على أنهم معاندون ، وقالوا : « لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَنْفُجِرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَدْبُوعًا ، أَوْ تَكُونَ لَكَ حَنَّةٌ مِنْ بَحِيلٍ وَعِنَبٍ فَتَهْجُرَ الْأَهَارَ حِلَالَهَا تَهْجِيرًا ، أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا كِسْفًا ، أَوْ تَأْتِيَ بَالِلًا وَلِلْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ، أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرَفٍ ، أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ

[١] آية ٣١ سورة هود . [٢] آية ٥٠ الأنعام .

لِرُقِيَّكَ حَتَّى نُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ ، قُل : سُبْحَانَ رَبِّي ! هَلْ كُنْتُ
إِلَّا نَشْرًا رَسُولًا . وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا بِالْغَيْبِ إِذْ حَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا
أَنْ قَالُوا أَتَعَثَّ اللَّهُ بَشْرًا رَسُولًا . قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْسُونَ
مُطْمَئِنِّينَ لَرَكَّزْنَا عَلَيْهِمُ مِنَ السَّمَاءِ مَآسِكًا رَسُولًا ^(١) .

وهكذا عاش الأنبياء والرسل أناسي وماتوا أناسي . كلهم احترق في سبيل
عشقه ، وكلهم ناضل من أجل عقيدته ، وكلهم احتشد في تحير وسيلة العيش
وطريق النضال ، وكلهم أخطأ وأصاب في اجتهداه فيما تحير من وسائل وطرق
لعبشه وكفاحه ^(٢) .

وفي موتهم جاز عليهم ما جاز على الإنسان . نعم في غمرات الموت كانوا
يتشوفون إلى ابقيا الله تعالى أكثر من حزنهم للدنيا وما فيها . ذلك لأنهم
ركروا إيمانهم فيما وراء الدنيا بحكم اختيارهم للرسالة ، وإيمانهم إيماناً كاملاً
بها . وهكذا الإنسان لا يأسف على ما فات أن قوى أملة بما هو آت .

وربما في عيشهم وكفاحهم كانوا أخرج إلى الاجتهاد وإعمال العقل

[١] الآيات من ٩٠ - ٩٥ سورة الاسراء .

[٢] في الصحيح أنه صلى الله عليه وسلم كان يقول : « اللهم اعفر لي خطيئتي وجهلي وما
أت أعلم به مي . اللهم اعفر لي هزلي وحدي ، وخطئي وعمدي ، وكل ذلك عندي » .

أكثر من غيرهم . لأن الأنبياء - وكذا المصلحين في الجماعة - أشد الناس حاجة إلى قوة العقل ورجاحة الفكر وحسن التقدير عن طريق المران العقلي . لأن ما يصادفهم من مشاكل الحياة ويمترض طريقهم من صعاب يتطلب سرعة البت في حل تلك المشاكل وإزالة هذه الصعاب والعقبات . ولا يكفي في سرعة البت هذه حسنُ استعداد المرء وصفاء عقله وسلامة فطرته . فكم في الفياق ورؤوس الجبال وبطون الأودية من خصوصية عقل وجودة طبع قضى عليها الكسل العقلي أو قلة الدربة في معالجة الأمور .

ولأن الدربة العقلية ألزم للرسول - وكذا المصلح - أكثر من غيره لا نجد بين من احفازهم الله لرسالته إلا من صهرهم الزمن وعركتهم الحوادث فجمعوا مع صفاء الطبع وعلو الأصل وغزارة العقل قوة الجلد ووفرة النصب والصبر على نوائب الدهر ومقارعة الخطوب .

وكلهم من أحل عيشهم احترفوا لأهم لم يكونوا من أصحاب اليسار . وربما تشابهوا جميعاً في مزاوله حرفة بالذات : فكثير منهم نشأ بتيماً أو شبه يتيم ، وكثير منهم قد رعى الغنم ، وبعضهم عمل عند غير أهله أجيلاً ياً كل من أجره .

وقد تجشم رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم طويلاً الأسفار للتجارة في

مال غيره بأجر ، وذاق مسرة اليتيم ، وحرم حنو الوالد ، فألبسه كل أولئك من دروع العظمة أقواها ، ومن فضائل الرجولة أعلاها ، وسمت به نفسه عن مواطن الترهل والمعمومة ، فتساقطت إليه أسباب الفضائل وتجمعت لديه عناصر الزعامة وأخصبت عبقريته وفتحت لإلهام السماء مشاعره ، الله أعلم حيث يجعل رسالته .

من الميسور للرجل أن يستغنى عن الاجتهاد ، وأن ننزوي في ناحية من نواحي الحياة غير متعرض لتياراتها المختلفة : فمن الميسور أن يتوارى الرجل في جوف صومعة منقطعاً للتبتل والعبادة حتى يلقي الله ، ومن الميسور أن ينقطع للدينا ويوليها جميع عنايته ، ويعطيها كل نفسه لا يسعى إلّا لها ولا يفكر إلا في جمعها معرضاً عن الآخرة لا يشعر بها ولا يعرف من أنشأها أحداً .

كما أنه من الميسور أيضاً أن يعيش الرجل في هذه الحياة لا يهدف إلى عاية ولا يسعى إلى غرض طافيا فوق نيارانها تقذف به مع الرمح حيث دارت وكبها اتجهت ، فتسارعه تراه عابداً مع العباد ، وبارة فاسفاً مع الفساق ، وبارة عطوفاً خيراً ، وأحرى حياراً عتياً . ونارة يسهمك في جمع المال ، وأحرى يغرق في السرف والتبذير . فكل فعل من أفعاله يصدر عنه بلا تفكير ولا روية . هتلى هذا إن لم يكن مجنوناً فهو أشبه بالمجانين .

كل هذا ميسور . أما أن يحوض الرجل غمار هذه الحياة ويأخذ من كل ناحية من نواحيها طرف ، فيعطى ربه حقه ، ونفسه حقها ، ونبي جنسه حقوقهم ، يعاشر الناس ويخالطهم ويعاملهم ، يجامل ويواسى ، ويقاطع ويخاصم ، ويهادن ويحارب ، كل في حدود المصلحة العامة والعدل والعقل ، وهو في كل ذلك سليم له دينه وعرضه ، فهذا ما لا يقدر عليه إلا القليل النادر ولا يستطيعه إلا أحد رجلين :

١ — رجل ألقى بنفسه بين يدي ملك الوحي ، يحركه كيف شاء ، وأنى شاء . يرسم له الطريق ويخطو به كل خطوة ، ويسلك به دقيق المسالك وشعاب السبل . ومثل هذا لا يحتاج في حياته إلى عبقرية ولا فكر ، بل ولا إلى عقل . وهذا ما نزه عنه الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين .

٢ — أو رحل أعطى من قوة الذهن وشدة الفطنة ويقظة القلب وعبقرية الفهم ما سهل عليه أن يتحهد ويصع كل شيء في محله وأن يستعمل كل شيء عند ظهور دواعيه . وهذا مقام الأنبياء والمرسلين والمصلحين .

فمن اصطفاهم الله حاصوا الحياة في جميع نواحيها وعالجوا كل صعابها وفكروا وقدروا . وان وقعت من بعضهم في طريق ذلك هنات فذلك من مقتضيات طبيعة البشر ، للفرق بين الرب والمرئوس والإله والمألوه . إذ العصمة لا تكون إلا لله وحده .

ونحن نعلم لهذا أنه لا يكفي ليكون الرجل فائداً ومصالحاً في كل ضرب من ضروب الحياة أن تكون حسن السيرة نقباً ورعاً فحسب ، بل لابد أن يكون قوى الفكر سريع البديهة ، قوى الحجة صارم المريمة شديد السكينة في تنفيذ الحق ، فطنا يقظاً حذراً لا يخدع .

فكنير من الصحابة عرفوا بالصلاح والمقوى ولم تعرف عنهم قوة الجلال والحجاج والحدز : منهم أنوموسى الأشعري رضى الله عنه . فقد كان ورعاً نقياً صالحاً حاشعاً ، ومع ذلك مكره عمرو بن العاص وخذعه في التحكيم حتى ظفر به وغلبه .

ومهم أبوهريرة رضى الله عنه . قد كان عابداً حافظاً ولكن لم يبرر اسمه في عداد شجعان الصحابة ولا ذوى رأى النافذ فيهم . روى البخارى عن الأعرج قال : قال أبوهريرة : « انى كنت امراً مسكيناً أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على ملء بطنى » . وفي رواية قال : « قدمت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا يومئذ قد ردت على ثلاثين فأقت معه حتى مات ، أدور معه في بيوت نسائه وأخدمه وأعزومعه وأحج » . وقال محمد بن سيرين عن أبي هريرة قال : « لقد رأيتنى أصرع بين منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وحجرة عائشة فيقال محنون ومابى جنون ، ومابى إلا

الجوع». وأخرج البغوى عن الأعمش قال : «ما كان أبوهريرة أفصل الأصحاب ولكنه كان أحفظهم » .

ومهم عبد الله بن عمر . وهو المعروف بالصلاح والورع وكثرة العبادة حتى أهكته ، ومع ذلك لما طعن والداه رضى الله عنه وذكره فيمن يؤخذ رأيهم فيمن يكون خليفة بعده ، قال لهم : حذوا رأيي ولا يكون هو الخليفة .

ومهم حسان بن ثابت فقد روى ابن كثير في تاريخه : قال عباد بن عبد الله بن الزبير : كانت صفية بنت عبدالمطلب يوم الخندق في حصن قالت : وكان حسان بن ثابت معنا فيه مع النساء والصبيان فمر بنا رجل من يهود فجعل يطيف بالحصن ورسول الله والمسلمون في محور العدو لا يستطيعون أن ينصرفوا عنهم إلينا ، فقلت : يا حسان ! إن هذا اليهودي كما تراه يطيف بالحصن وإني والله ما آمنه أن يدل على عورتنا من وراءه من اليهود ، فأنزل إليه وأقبله ! قال : يغفر الله لك يا بنت عبدالمطلب ، والله لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا . قالت : فلما قال ذلك أحدث عمودا ثم رأت من الحصن إليه فضرته بالعمود حتى قتلتها ، ثم رجعت إلى الحصن وقلت : يا حسان ! أنزل فاستلبه ، فانه لم يمعنى من سلبه إلا أنه رحل . قال : مالى سلبه حاجة يا بنت عبدالمطلب .

وإد تطلبت صعب الحياة ومشاكلها على كثرتها من الرسل عليهم الصلاة والسلام حدة الذهن وإعمال العقل والاجتهاد في تخير الرأي الصائب كان من الحكمة الإلهية أن وهب الله لرسله سلامة الجسم ، كما منحهم سلامة العقل حتى يستطيعوا عن طريق القوة البدنية المنانرة في التغلب على الصعاب وإيجاد حلول لمشاكل الحياة .

وقد كان الأنبياء والرسل عليهم صلوات الله جميعاً ذوى أجسام صحيحة وأبدان معافاة سليمة . وربما كان لحرفهم التي زاولوها في حياتهم قبل البعثة والتكليف بتبليغ رسالة الله دخل في صحة أجسامهم ومعافاة أبدانهم . وربما كان احترافهم بها من توحى الله لهم . فقد رعى معظمهم الغنم^(١) أو زاول حرفة أخرى^(٢) . ولا شك أن في رعى الغنم أو مزاوله الحرفة درة على

[١] روى البخارى عن أنى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ما بعث الله نبيا إلا رعى الغنم . فقال أصحابه : وأنت ؟ فقال : نعم . كنت أرهاها على قراريط لأهل مكة » . وروى النسائي من حديث نصر بن حزن قال : « افترأ أهل الإبل وأهل العم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بعث موسى وهو راعى عم ، وبعث داود وهو راعى عم ، وبعث أنا وأنا راعى عم أهلى » .

[٢] روى البخارى عن أنى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن داود عليه السلام كان لا يأكل إلا من عمل يده » . قال الحافظ بن حجر : « وحاء عن ابن عباس : أن داود كان زراداً ، وكان آدم حراثاً ، وكان يوحى نوحاً ، وكان إدريس حياطاً ، وكان موسى راعياً » . قال الخطاى : إن الله لم يصم النوبة في أبناء الدنيا والمتربين منهم ، وإنما جمعها في أهل النواصع كرعاء الشاة وأصحاب الحرف .

الصبر على العمل مهما عظم أو شق على النفس^(١) ، كما يحفز إلى الاستخفاف بالمسكاره والاقدام عند الغزع^(٢) .

[١] روى البخارى عن البراء بن عازب قال : « رأيت النبى صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب يقل من تراب الحمى حتى وارى عى العمار حلدة بطيه » . وروى البخارى أيضاً عن حابر بن عبد الله قال : كما يوم الحمى يحفر فعرصت لنا كدية شديدة (قطعة حجر صلبة لا يعمل فيها المغول) فأحروه صلى الله عليه وسلم ، فقال : « أما نارل ، ثم قام وبطيه معصوب بحجر وكسا لشا ثلاثة أيام لا بدوق دواقاً فأحد صلى الله عليه وسلم المغول فصرى فى السكبة فعاد كثيراً أهيل » .

[٢] روى البخارى عن أنس قال : « كان النبى صلى الله عليه وسلم أحسن الناس وأشجع الناس ، ولقد فرع أهل المدينة ليلة فمروا نحو الصوت فاستقبلهم صلى الله عليه وسلم وقد تحقق الحر ، وهو على فرس عرى ، ما عليه سرح ، وفى عنقه السيف وهو يقول : لم تراعوا ، لم تراعوا » .

الفصل الثاني

رأى بعض العلماء في جواز اجتهاد الأنبياء :

رأبنا أن نقدم بين بدى تفصيل الكلام على اجتهاد نبينا صلى الله عليه وسلم جملة من أقوال كبار العلماء على اختلاف مذاهبهم واتجاهاتهم فى اجتهاد الأنبياء عليهم صلوات الله . ومنها يتبين للقارىء أن الذين ينكرون اجتهاد الأنبياء إنما نغمصون أعينهم ويستغشون تياهم حتى لا نتحطف أبصارهم هذه الأدلة القاطعة التى لا يصمد أمام صولتها لجاجة معاند ولا مكاررة جاحد .

ولدى من منع الاجتهاد عن الأنبياء من أمثال أبى على الجبائى وابنه أبى هانم دليل امتار بكثرة دورانه على ألسنة الناس . وهو فى واقع الأمر ليس بدليل . وهذا الدليل هو التمسك بقوله تعالى : « وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ^(١)... » . فقد افطع الجبائى هذه الآية عن سابقتها ولاحقها ، وقذف بها فى آذان الناس . فصارت تلوكها ألسنتهم بدون فكر ولا روية . والعجيب أنا كثيراً ما نسمع من يستدل بها حتى الآن من بين طلاب العلم والعلماء .

[١] آية ٣ من سورة الحجر .

وإذا قطعنا النظر عن أن سياق الآيات يدل كما فهم كبار المحققين على أن الكلام في القرآن وان المراد أن هذا القرآن الذي يتلوه عليكم محمد ليس من عنده ، بل هو وحي يوحى إليه من الله ، نقول : إذا قطعنا النظر عن كل ذلك فإنا نقول لكم : ما ذا تريدون . « ما ينطق عن الهوى » ؟ أتريدون أنه صلى الله عليه وسلم لا يلفظ بقول مطلقا في أى جزئية إلا وحي . حتى قوله : كيف أنت يا فلان ، أو أين ذاهب ، أو مزاحه مع زوجته ، أو حادمه ، أو قوله : أنا عطشان أو جوعان ، أو اسقنى مثلاً . إن قلتم إن كل هذا وحي حاص ، قلنا لكم قد سقط الخطاب معكم .

وإن أردتم أنه لا ينطق عن الهوى بمعنى أنه لا يقول عن شهوة وغرض بل ما يقوله لمصلحة ، قلنا نحن معكم في هذا . ولكن لا يفيدكم في منع الاجتهاد . لأن الاجتهاد لا يصدر منه إلا نحت اعتقاد أنه مصلحة . وإن ظهر خلاف ذلك فهو معذور .

وإن أردتم أنه لا ينطق عن هوى بمعنى أنه أوحى إليه بأنه يجتهد ، فاجتهاده باذن ، قلنا لكم ونحن نقول بذلك . ولا مانع حينئذ من أن يجتهد ولا يصيب في جزئية . لأنه لا تلازم بين الإذن في الاجتهاد وبين الإصانة في كل حرئية ، كما أنه لا تلازم بين الأمر بالصلاة وبين وقوعها كما أمر الله ، بل قد يعتريه فيها السهو فيصلى الرباعية مثلاً خمساً .

وإن قلتم إن المراد ما ينطق عن الهوى في الأمور الشرعية فقط ، أى ما يكون فعله لها يعتبر تشريعاً مرغوباً فيه ، قلنا لكم : وهل أخرجتم من أعماله الشرعية سوى خصوصياته كنسكاح ما فوق الأربع ، وسوى جبليانه كالخوع والعطش ، والصحة والمرض . أما ما عدا ذلك من أقواله وأفعاله وسكونه فكل ذلك أدخلتموه في أعماله التشريعية ، فقلتم : يُسنّ لنا أن نرحى في غطاء الرأس عذبة ، كما كان صلى الله عليه وسلم يفعل . وقلتم عند ما نقل عنه في الصحيح أنه صلى الله عليه وسلم قبّل ابنه إبراهيم وسماه - : وفي الحديث مشروعية نقيبيل الوالد لولده وسماه . وقلتم - لما فى صلى الله عليه وسلم توبه - : يؤخذ من الحديث مشروعية نقبلة المرء توبه . فهل كل ما كان من هذا النوع - وهو لا يعد ولا يحصى ولا يخلو عنه صلى الله عليه وسلم فى حل حياته الشريفة - بوحى ؟ . أظن أنه لا نقول بذلك عاقل .

رأى ابن حزم :

وابن حزم فى كتابه « العِصَل فى الملل والأهواء والنحل » بقول :

« قد يقع من الأنبياء قصد الشيء يريدون به وجه الله تعالى فيوافق خلاف مراد الله تعالى ، وأنه تعالى لا يقرهم على شيء من هذا أصلاً . بل ينههم إلى ذلك إثر وقوعه منهم ، ويظهره لعباده . وربما عاتبهم على ذلك

بالكلام ، كما فعل مع نبينا صلى الله عليه وسلم في أمر « زَيْنَب » ^(١) ، وقصة ابن أم مكتوم ، وربما عاشهم ببعض المكروه في الدنيا ، كالذى أصاب آدم ويونس عليهما السلام .

والأنبياء عليهم السلام بخلافنا في هذا . فإننا غير مؤاخذين بما قصدنا به وجه الله فلم يصادف مراده تعالى ، بل نحن مأجورون على هذا أجراً واحداً ... ثم ذكر عن آدم قوله تعالى : « فَمَعَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ » ^(٢) وقوله : « فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ » وشرح ذلك بأن التوبة لا تكون إلا من ذنب . ثم قال : وهذا وقع منه عن قصد إلى خلاف ما أمر به متأولاً في ذلك ولا يدرى أنه عاص ؛ بل كان ظاناً أن الأمر للبدب مسلاً أو النهى للكرهية . وهذا شيء يقع فيه العلماء والعقهاء كثيراً . وهذا هو الذى يقع من الأنبياء ، ويؤاخذون به إذا وقع منهم .

ثم قال : وقال لنوح : « فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَمْ يَكُ بِهٖ عِلْمٌ لِّىَ أُعْظِكَ أَنْ تَكُونِ مِنَ الْخَاسِرِينَ » ^(٣) لأن نوحاً ظن أن ابنه من أهله ، وأن المراد أهل القرابة . فلما علم أن هذا ليس مراداً ندم ، وليس هنا نعتد بالعصية .

[١] قصة زينب واس أم مكتوم سيأتى تفصيلها بعد . [٢] آية ١٢١ سورة طه .

[٣] آية ٤١ سورة هود .

وقال (الله) فى بوس : [وَدَا الثُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُعَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ
نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ
مِنَ الظَّالِمِينَ] ^(١) .

وقال (الله) لنبيينا صلى الله عليه وسلم : [فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا نَكُنْ
كَصَاحِبِ الْخُوْتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ لَوْلَا أَنْ يَدَارِكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ
رَبِّهِ لُمِدَّ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ] ^(٢) . ثم قال (صاحب الفصل) : إنه عاضب
قومه ولم يوافق ذلك مراد الله فعوب بذلك ، وإن كان ظاناً أن هذا ليس عليه
فيه شيء . وهذا هو ما أراد الله من نبيينا صلى الله عليه وسلم حين نهاه عن
مغاصبة قومه ، وأمره بالصبر على أداهم . وأما إخبار الله بأنه استحق الدم
والملامة لولا النعمة التى يداركه بها للبت معاقباً فى بطن الخوت ، فهذا هو
ما يقرر آناً من أن الأنبياء عليهم السلام يؤاخذون فى الدنيا على ما فعلوه مما
يظلمونه حيراً إذ لم يوافق مراد الله . وعلى هذا الوجه أقر يونس عليه السلام
على نفسه بأنه كان من الظالمين . ^(٣) « .

[١] آية ٨٧ سورة الأنبياء .

[٢] آية ٤٨ ، ٤٩ سورة نون

[٣] ملخص من كتاب « الفصل فى الملل والأهواء والحل » ج ٤ ص ٢

طبعة صليح سنة ١٣٤٧ هـ .

رأى ابن تيمية:

وابن تيمية يرى أن « الأبناء صلوات الله عليهم معصومون فيما يخبرون به عن الله تعالى وفي تبليغ رسالته باتفاق الأمة . بخلاف غير الأنبياء فإنهم غير معصومين ، ولو كانوا أولياء الله » .

وأما العصمة في غير ما يتعلق بالمبليغ فللمناس فيه نزاع : والقول الذي عليه جمهور الناس - وهو الموافق للمنقول عن السلف - إثبات العصمة من الإقرار على الخطأ والذوب مطلقاً .

واحتج من قال إنه لا يقع من الأنبياء ذوب بأن التأسي بهم مشروع . وذلك لا يكون إلا إذا عصمت أفعالهم عن الذب . وأحيى بأن التأسي مشروع فيما أقروا عليه دون ما نهوا عنه ، كما أن أمر الله ونهيه إنما يجب طاعته فيما لم ينسخ منه ، أما ما نسخ منه فلا يكون مأموراً به فصلاً عن وجوب طاعته^(١) .

[١] ونقول أيضاً لا أراع فيما وبسكم في أن التأسي به صلى الله عليه وسلم في الصلاة مشروع بل واجب ، ومع ذلك يقع منه السهو والسيان ويراجع في سهوه ويصحح =

احتجوا أيضاً بأن الدوب نفاى السكالم وأنها توجب التنفير ، ونحو هذا من الحجج العقلية . وردَّ بأن هذا إنما يكون مع البقاء على ذلك وإلا فالتوبة النصوح التى يقبلها الله يرفع بها صاحبها إلى أعظم مما كان عليه ، كما قال بعض السلف : كان داود عليه السلام بعد التوبة حزيناً منه قبل الخطيئة ، وكان يوسس بعد حروجه من بطن الحوت وتوبته أعظم درجة منه قبل أن يقع ما وقع . قال تعالى : [فاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ ، لَوْلَا أَنْ تَدَارَكُهُ رَعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ فَاجْتَنَبَاهُ رَبُّهُ جَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ] . وهذه الحال الأخير بخلاف حال التقام الحوت ، فإنه قال فيه : [فَأَلْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ] فأحبر سبحانه أنه فى تلك الحال ملهم . والملهم هو الذى فعل ما بلام عليه ، فكان حاله بعد قوله : [لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ] أرفع من حاله قبل أن يكون ما كان . والاعتبار بكمال الهاية ، لا بما جرى فى البداية . والأعمال بخوابيمها . والله خلق الإنسان لا يعلم شيئاً ، ثم علمه ، فنقله من حال النقص الى حال الكمال . فلا يجوز أن يعتبر قدر الإنسان بما

== ما سها عنه ، فلم لا يكون الخطأ فى الاحتياط كوقوع السهو فى العباد والكل يذنب صلى الله عليه وسلم عليه ؟ . روى البخارى عن ابن مسعود — عند ما سها صلى الله عليه وسلم فى الصلاة وذكره — أنه قال : [لو حدث شئ فى الصلاة لمأتلكم به ، ولكن إنما بشر مثلكم أسى كما تسون ، فإذا سبت فذكرونى] .

وقع منه قبل حال السكّال ، بل الاعتبار بحال السكّال . وبوس وعيره من
الأنبياء صلوات الله عليهم في حال النهاية في أكمل الأحوال .

وقد كان هذا حال الأنبياء دائماً سادرون إلى التوبة والاستغفار عند
الهمّة . والقرآن شاهد عدل

فها هو ذا لم يذكر شيئاً من ذلك عن نبي من الأنبياء إلا مقروناً بالتوبة
والاستغفار . كقول آدم وزوجه : [رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا
وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ] . وقول نوح : [رَبِّ إِنِّي أَعُودُ بِكَ أَنْ
أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ]
وقول الحليل : [وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ] . وقول
موسى : [رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي] . وقوله : [فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ
سُبْحَانَكَ تُنْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ] وقوله تعالى في داود : [فَاسْتَغْفِرْ
رَبَّهُ وَحَرَّ رَاكِعًا وَأَبًّا ، فَعَفَّرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَرَأْفًا وَحُسْنَ
مَآبٍ] . . . إلى غير ذلك .

والذين لا يقولون بصدر محالف عن الأنبياء نأولوا كل ذلك بمثل

تأويلات الجهمية^(١) والقدرية^(٢) لنصوص الصفات والمعاد . وهى من جنس
تأويلات الماظنية^(٣) والعراطة^(٤) التى يُعلم بالضرورة أنها باطلة وأنها من
باب تحريف الكلم عن مواضعه

وهؤلاء يقصد أئدهم تعظيم الأنبياء فيقع في تكذيبهم ، ويريد الإيمان
بهم فيقع في الكفر بهم .

ثم إن العصمة المعلومة بدليل الشرع ، والعقل ، والإجماع ، وهى العصمة فى
التبائع لم ينفعوا بها إذا كانوا لا يقرون بموجب ما بلّغته الأنبياء . ومن هنا
علط من غلط فى تفصيل الملائكة على الأنبياء والصالحين فاتهم اعتبروا كمال
الملائكة مع بداية الصالحين ونقصهم فغلطوا . ولو اعتبروا حال الأنبياء

[١] أصحاب حزم بن صفوان ، قالوا : لا قدرة للعبد ، والله لا يعلم الشئ قبل وقوعه
وعلمه حادث لافى محل ، ولا يتصف بما يتصف به غيره كالعلم والقدرة . ويسمون الماطلة
أيضا . فالماطلة والجهمية فرقة واحدة .

[٢] القدرية هم المعتزلة ، ولعمرو بذلك لأهم أسندوا أفعال العباد إلى قدرهم ويلقبون
بأصحاب العدل والتوحيد لقولهم بوحوب « الإصلاح » وبى الصفات القديمة .

[٣] فرقة من فرق الشيعة ، ويسمون أيضا الإسماعيلية . وسبوا باطية لقولهم باطن
الكتاب دون ظاهره . ولقبوا بالإسماعيلية لإنسابهم الإمامة لإسماعيل بن جعفر ووقعهم
بالإمامة عليه .

[٤] لقبوا بذلك لأن أولهم الداعى إلى المذهب ، وهو حمدان قرمط ، طهر بالكوفة
سنة ٢٧٠ هـ . ومن رعبهم أن لا غسل من الحماة ، وأن الخمر حلال ، وأن الخبث إلى
بيت المقدس

والصالحين بعد الكمال ورضى الرحمن ودحول الجنان ، والملائكة يدخلون عليهم من كل باب قائلين سلام عليكم مما صدرتم فعمى عقبي الدار ، لرحموا عن خطيئهم .

وما يظنه بعض الناس من أن من ولد على الإسلام فلم تكفر قط أفضل ممن كان كافراً فأسلم ، ليس بصواب . بل الاعتبار بالعاقبة ، فأيهما كان أبقى في عاقبته كان أفضل . إذ من المعلوم أن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار الذين آمنوا بعد كفرهم أفضل ممن ولد على الإسلام من أولادهم وغير أولادهم . وكان عمر بن الخطاب وحالد بن الوليد رضى الله عنهما من أشد الناس على الإسلام ومع ذلك لما أسلما تقدما من سبقهما في الإسلام ، لما ظهر منهما من كمال الجهاد للكمفار والانتصار لله ورسوله وذلك يبين أن الاعتبار بكمال النهاية لا بنقص البداية . وقد ورد أن الله يفرح بتوبة التائب أعظم من فرح العاقد لما يحتاج إليه من الطعام والشراب والمرح إذا وحده بعد يأس

ومن ظن أن صاحب التوبة النصوح يكون ناقصاً فقد غلط غلطاً عظيماً . فإن الدم والعقاب الذى يلحق أهل الذنوب لا يلحق التائب مهما شئء أصلاً . لكن إن أسرع بالتوبة لم يلحقه شئء ، وإن أحر التوبة فقد يلحقه ما بين الذنب والتوبة ما يناسب حاله من الذم والعقاب .

والأنبياء صلوات الله عليهم كانوا لا يخرجون التوبة ، بل يسارعون إليها ولا يصبرون على الذنب ، بل هم معصومون من ذلك . ومن أحر ذلك زمناً يسيراً كفر الله عنه ذلك ، مما ينجليه به . كما فعل بذي النون على المشهور من أن إلقاءه كان بعد النوبة . أما إذا كان قبلها فلا يحتاج إلى ذلك . وبصوص الكتاب والسنة في هذا الباب كثيرة . لكن المنازعون يتأولونها كتأويلات الماطنية ، كما تقدم . وتأويلاتهم ظاهرة الفساد لمن تدرها . فهي من باب تحريف الكلم عن مواضعه .

من ذلك تأويلهم قوله تعالى : [لِيَعْمَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ]^(١) . قالوا : المراد ذنب أمّتك . وذلك باطل من وجوه :

١ - قوله تعالى : [كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ]^(٢) . وقال : [فإمّا عليه ما أحملَ وعليكم ما حمّلتم]^(٣) .

٢ - أنه قد ميز بين ذنبه صلى الله عليه وسلم وذنب أمته ، بقوله : [واسْتَغْفِرْ لَذَنْبِكَ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ]^(٤) . فكيف يعد ذنب المؤمنين ذنباً له ؟ .

٣ - أن هذه الآية لما رلت همّ بعض الصحابة بالتسديد على أنفسهم بعدم قربان النساء والصيام دائماً تقرباً لله بذلك . فلما علم بذلك

[١] آية ١ سورة الفتح [٢] آية ٣٨ سورة المدثر [٣] آية ٥٤ سورة البور

[٤] آية ١٩ سورة محمد

صلى الله عليه وسلم غصب ، وقال : [إني أفوم ، وأناام ، وأصوم ، وأفطر ، وأنزوج النساء . فمن رغب عن سنني فليس مني ! فقالوا : إنا لسنا مثلك]
بارسول الله ، فان الله قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، فقال : إن
انتقامكم وأعلمكم بالله أنا . أفلا أكون عبداً شكوراً ؟]^(١) .

فدل هذا على أن الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين يعلمون أن قوله
تعالى : [لِيَعْرِفَ لَكَ . . .] . خاص به دون أمته . وفي الصحيح أنه
صلى الله عليه وسلم كان يقول : [اللهم اعمر لي حطيتي وجهلي وما أنت أعلم
به مني . اللهم اعمر لي هزلي وجددي ، وحطيتي وعمدي ، وكل ذلك عندي] .
وأخرج الصحيحان أن آية الفتح رأت مَرَحَمَهُ صلى الله عليه وسلم من
الحديبية . فقال صلى الله عليه وسلم : [لقد زلت على الليلة آية أحب إلى مما
على الأرض ، ثم قرأها عليهم . فقالوا : هنيئاً مريئاً يا بني الله ، أين الله ما يفعل
بك . فما يفعل بنا ؟ . فزات : [ائِدْ حِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي
منْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ . . . حتى بلع فوراً عظيماً] . وروى البخاري عن المغيرة :
[كان صلى الله عليه وسلم يقوم حتى تورم قدماه أو ساقاه . فقبل : لم هذا
وقد غفر لك ؟ . فقال : أفلا أكون عبداً شكوراً ؟] .

[١] في رواية البخاري .

فكل هذه الروايات الصحيحة الصريحة تدل على بطلان قول من رأى
أن الذنب المغفور ذنب أمته . ولكنه التعصب للرأى واللجاجة فى غير
الحق « (١) .

رأى القاضى عياض :

قال القاضى عياض فى « الشفاء » (٢) :

١ - « وأما أحواله فى أمور الدنيا فقد يعتقد صلى الله عليه وسلم التمسك بها على
وجهه ويظهر خلافه . (أى يظهر أنه على خلافه فى الواقع ونفس الأمر (٣)) . ثم
ذكر حديث نأير النحل المروى عن مسلم والذى سيأتى تفصيل الكلام فيه .
وفى آخره قال صلى الله عليه وسلم : إمسأ أنا نسر ، إذا أمر بكم شىء من
دينكم فخذوا به ، وإذا أمر بكم شىء من رأيي فإمسا أنا نسر . قال شارح
الشفاء ، أى قد أرى الرأى فى أمور الدنيا والأمر بخلافه ، فلا يحسب إمساعه .
ثم ذكر رواية مسلم الأخرى التى فيها : [إمسأ ظمنت ظمًا فلا تؤاخذونى
بالظن] .

[١] فتاوى ابن بيمية ، ج ٢ ص ٢٨٣ طبع كردستان العالمية بالقاهرة سنة ١٣٢٦ هـ .

[٢] ج ٤ من ص ٢٦٥ طبع المطبعة الأهرية المصرية سنة ١٣٢٧ هـ .

[٣] تعليق شهاب الدين الحماجى .

ويحكى عن ابن رشد أنه في كتاب « التحصيل والبيان » يذكر أن هذا الحديث - يشير لحديث مسلم في تأييد النخل - روى بألفاظ مختلفة ، متقاربة معنى ، كقوله صلى الله عليه وسلم : [ما أنا بزارع ولا صاحب نخل] . ويعلق أنوليد^(١) بقوله : إنه صلى الله عليه وسلم بين أنه لا تأثير في الصلاح والفساد لغير الله تعالى ، إلا أن الله تعالى قد يجري العادة بأسباب تعلم بالتجربة ، كالتأثير . وهو صلى الله عليه وسلم لم يسبق له تجربة فيه . وفي رواية أنه صلى الله عليه وسلم قال : [إنا أنا نشر ، فما حدثتكم عن الله فهو حق ، وما قلت فيه من قبل بمسى فإنا أنا بشر أخطئ وأصيب] .

والخفاحي سارح الشفاء - بعد أن ذكر حادثة نزول المسلمين بأدى مباء برر التي سيأتى سرحها ، ومعارضة الحباب بن المنذر وقوله : أهذا منزل أنزلك الله ليس لنا أن نتقدمه ؟ أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ . فقال صلى الله عليه وسلم : [بل هو الحرب والرأى .. إلخ] . فأشار الحباب بممرل آخر . فقال صلى الله عليه وسلم : [أشرت بالرأى الصائب !] وفعل ما قاله الحباب - علق بقوله : إن العرب أدري بالحروب ، لأهم جربوها وفاسوا شدائدھا .

ويستطرد - القاضي عياض - في ذكر أحواله صلى الله عليه وسلم في

[١] لقب بن رشد .

أمر الدنيا ، فيروى حادثة عزمه صلى الله عليه وسلم على مصالحة أعدائه يوم الخندق على تمر المدينة^(١) . فلما استشار صلى الله عليه وسلم الأنصار وعارضوا رأيه رجع عنه . ثم يعلق على هذه الحادثة بقوله :

فمثل هذا وأشبهاه من أمور الدنيا التي لا مدخل فيها لعلم ديانة ولا اعتقادها ولا تعليمها ، كل هذه يحوز عليها صلى الله عليه وسلم فيها ما ذكرناه من اعتقادات على وجهه فيظهر على خلافه . إذ ليس في هذا نقیصة ، إنما هي أمور اعتيادية يعرفها من حرسها وتشغل نفسه بها ، وهو صلى الله عليه وسلم مسحون القلب بمعرفة الربوبية .

٢ - وينتقل بعد ذلك إلى الحديث عما يعتقده صلى الله عليه وسلم في أمور أحكام البشر الجارية على يديه وقضاياهم ، ومعرفة الحق من المبطل ، والمصالح من المفسد ، ويحكم بأن : كل ذلك على السبيل في أمور الدنيا التي قد يظهر له منها ما الأمر على خلافه أحياناً^(٢) .

[١] سيأتى الحديث عنه .

[٢] ويعلمه الخفاجي ، صاحب الصرح عليه ، بأن الله احتار له ذلك لئلا يصل به بعض أمته لتوهمهم أنه يعلم العنب فيقعون فما وقع فيه الصارى . ويقول صاحب « المنار » في هذا المعنى : وكان من حكمة الله في تربية رسوله صلى الله عليه وسلم وتكميله أن يبين له بعض الحقائق بعد إحماده الشخصى البشرى فيها لتكون أوقع في نفسه ونفس أتباعه . وأيضاً تكون مديراً دائماً لما لم يتحدث عنه بنفسه بما وقعت =

ويؤيد حكمه هذا بذكر حديث الشيخين وأبي داود - واللفظ لأبي داود - :
قال صلى الله عليه وسلم : « إنما أنا بشر ، وإنكم تختصمون إلي ، ولعل
بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضى له على نحو مما أسمع . فمن
قصيت له من حق أخيه شيء فلا يأخذ منه شيئاً ، فإنما أقطع له قطعة
من نار » (١) .

رأى ابن خلدون :

وأما ابن خلدون فيتعرض - في مقدمته (٢) - عند الحديث عن طب
المادية لما كان يراه الرسول صلى الله عليه وسلم في أمر العلل وعلاجها ، ويذكر
أن رأيه في ذلك لا يتصل بالوحى ؛ بل يعد من الأحوال التي هي عادة وجلة
له . وعبارته : « ولللبادية من أهل العمران طب يبنونه في غالب الأمر على
تجربة قاصرة على بعض الأشخاص ، متوارثاً عن مشايخ الحى ومخائزه . وربما

== فيه الصارى مع عيسى عليه السلام ، فتكون حداً فاصلاً واصحابين صفات البشر وصفات
حائق البشر ، وصفات الحادث الذى يتلقى عن غيره ما يكمله ، وبين صفات القديم الذى
يعيش من قبس علمه على من يختار من عباده . سبحانه هو وحده ، الذى ليس كمنه شيء ١ .
[١] قال شارح الشعاء في تعليقه على هذا : لما أمر الله تعالى أمته بالافتداء به واتباعه في
قضاياه وأحكامه كان حكمه على هذا النحو ، وإلا لم يكن للأمة سبيل للاقتداء به في شيء
من ذلك ، وليقتدى به حكام أمته ، ويستوثقوا بما يؤثر عنه ، ويصبط قلوبهم شريعته .
[٢] طبع المطبعة الأميرية ؛ سنة ١٣٢١ هـ ص ٤٦٧ .

يصح منه البعض ، إلا أنه ليس على قانون طبيعى ولا على موافقة المزاج .
وكان عند العرب من هذا الطب كثير ، وكان فيهم أطباء معروفون : كالخارن
ابن كِلْدَة وغيره

والطب المنقول فى التمرعات من هذا القبيل وليس من الوحي فى شىء ،
وإنما هو أمر كان عاديا للعرب ووقع فى ذكر أحوال النبى صلى الله عليه وسلم
من نوع ذكر أحواله التى هى عادة وحيلة ، لا من جهة أن ذلك مشروع على
ذلك النحو من العمل . فإنه صلى الله عليه وسلم إنما بعث ليعلمنا الشرائع ، ولم
يبعث لتعريف الطب ولا غيره من العادات . وقد وقع له فى شأن تأبير النخل
ما وقع ، فقال : أنتم أعلم بأمر دنياكم

فلا ينبغي أن يحمل شىء من الطب الذى وقع فى الأحاديث الصحيحة
المنقولة على أنه مشروع ، فليس هناك ما يدل عليه . اللهم إلا إذا استعمل على
جهة التبرك وصدق العقد الإيماني فيكون له أثر عظيم فى النفع . وليس ذلك
فى الطب المزاجى ، وإنما هو من آثار الكلمة الإيمانية ، كما وقع فى مداواة
المبطون بالعسل والله الهادى إلى الصواب ، لا رب سواه .

رأى السكّال بن الهرمام :

والسكّال بن الهرمام فى كتابه « التحرير » يذكر أن أكثر الأقوال الفقهية ترى أنه صلى الله عليه وسلم مأمور بالاجتهاد مطلقاً فى الأحكام الشرعية ، والحروب ، والأمور الدينية من غير تقييد شىء منها ويشير إلى أن ذلك مذهب عامة الأصوليين . مالك ، والشافعى ، وأحمد ، وعامة أهل الحديث ^(١) كذلك ثم يسوق قوله تعالى : « عَمَّا لَلَّهِ عَمَّا لَلَّهِ لَمَ أَذِنَتْ لَهُمْ » ،

[١] وحاء فى التحرير وشرحه أيضا :

« وقال الأشاعرة وأكثر المعتزلة لا يصح أن يكون صلى الله عليه وسلم مأموراً بالاجتهاد فى الأحكام الشرعية .

وقال بعد ذلك : وقيل كان له الاجتهاد فى الأمور الدينية والحروب دون الأحكام : وقيل كان له الاجتهاد فى الحروب فقط ، وهو يحكى عن القاضى والحنائى .

وقال القرافى فى شرح تنقيح الوصول : قال الشافعى وأبو يوسف وقع منه صلى الله عليه وسلم الاجتهاد . وقال أبو على وأبو هاشم : لم يكن متعبداً بقوله تعالى : إن هو إلا وحي يوحى . وقال بعضهم كان له صلى الله عليه وسلم أن يجتهد فى الحروب والآراء دون الأحكام . وتوقف أكثر المحققين وقال ابن الحاحب وشارحه العصد : المختار وقوعه ، لما : عما الله عمنك لم أدت لهم . عاتبه على حكمه ، ومثل ذلك لا يكون فيها علم بالوحي . وقال صلى الله عليه وسلم . لو استقبلت من أمرى ما استدبرت ما سقت الهدى وسوق الهدى حكم شرعى . أى لو علمت أولاً ما علمت آخرها لما فعلت . ومثل ذلك لا يستقيم إلا فيما عمل بالرأى . قال السعد فى الحاشية : قوله عاتبه على حكمه الذى هو الأدن بالتحلف عن توكل لمن طهر بواقفهم . وهذا يقوم حجة على من منع اجتهاده مطلقاً . أما من حوره فى الحروب وأمور الدنيا دون الأحكام الشرعية التى تتعلق بذلك فالحجة عليه قوله صلى الله عليه وسلم : لو استقبلت من أمرى . . . الحديث . ولذا صرح بأن سوق الهدى حكم شرعى . وقال العطار فى حاشيته على شرح الحلال المحلى : والغال على الظن أنه صلى الله عليه وسلم كان لا يجتهد فى قواعد أصول الفقه كما سيأتى ، وكان يجتهد فى الفروع .

ويعلق عليها بقوله : ولا عتب فيما هو وحي من عند الله ، ويرد ما قاله الكرماني من أنه عتاب على ترك الأولى ، بأن ظاهر الآية مخالفه ^(١) .

ثم يذكر أنه قد جاء في الحديث الصحيح : « أنه بعد أن مال صلى الله عليه وسلم إلى رأى أنى بكر وأحد العداء ، وخالف بذلك رأى عمر القائل بالقتل ، ونزلت الآية الكريمة السابقة : « مَا كَانَ لِإِنْسِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى' . . . » بكى صلى الله عليه وسلم وبكى معه أبو بكر ، قال عمر : فسألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن سبب بكائه فقال صلى الله عليه وسلم : أبكى لدى عرض على أصحابك من أحدهم الفداء ، ولقد عرض على عدائهم أذى من هذه الشجرة ، وقال : لو نزل عذاب من السماء ما نجا منه إلا عمر . ويستنتج منه : أنه يدل على أن أخذ الفداء كان باحتياط ، وكان خطأ عظيماً ، ويعمل ذلك بقوله : لأن العذاب لا يكون لترك الأولى ، ثم يستطرد فيقول : فإن قلت : كيف هذا وقد نقرر أن الخطيئة في الاجتهاد له أحر واحد ؟ ، قلت : الأجر على تقدير أن لا يكون حلاف ما أدى إليه الاجتهاد طاهراً .

[١] قال شارح مسلم الثبوت : وقد يقال : هذا لا يدل على كون أحد العداء بالرأى فإنه يجوز أن يكون صلى الله عليه وسلم محيراً بين الفداء والقتل ، ويكون القتل أولى ، والعتاب لترك الأولى . ولا يحى أن هذا بعيد . فإن مثل هذا الوعيد الشديد لا يكون على خلاف الأولى .

فأما إذا كان ظاهراً ، فلا . بل يستحق المجتهد العذاب . ألا ترى أن المبتدعة قد كانوا مجتهدين . فحيث كان حلاف رأيهم ظاهراً استحقوا العذاب . قال صلى الله عليه وسلم : « كلهم في النار إلا واحدة » . فإن قلت إذا كانت الحكمة في عدم تعذيب الخطيء أنه بدل وسعه في طلب الصواب فلا يفترق الحال في كون المجتهد فيه عملياً أو اعتقادياً ، فلم يحكمتم بعدم نجات المبتدعة وهم مجتهدون في العقيدة ؟ قلت : في الاعتقاد لم يكن المحل صالحاً للاحتجاج ، لوجود النص المعيد للقطع ، والشارع قد منع الخوض في ذلك .

ثم قال : وقد ثبت اجتهاده صلى الله عليه وسلم في الشرعيات ، فقال : « لو استعملت من أسرى ما استدرت ما سقت الهدى ، فعلم أنه لم يسق يوحى ، وإلا لم يقل ذلك . وأيضاً لو كان سائقاً بالوحى لكان علمه بالمصلحة كعدم علمه بها^(١) - وسوق الهدى مندوب - فقد اجتهد في حكم شرعى . ثم قال : إلا أنه صلى الله عليه وسلم إذا اجتهد وأخطأ لا يقر على الخطأ . ثم قال : ولا يبعد أن يقال : إن في جوار الخطأ في اجتهاده صلى الله عليه وسلم إشارة إلى أن فكر البتسر وإن كان في أعلى الدرجات يحتمل الخطأ ، بخلاف الوحى . ثم قال : وقول من أسكر وقوع الخطأ في اجتهاده صلى الله عليه وسلم ، وتأول مثل آية : [عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ] . وآية : [مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ أَنْ يَسْكُونَ لَهُ أَسْرَى ... الخ] على حلاف ظاهرهما على وجه يحل بكال

[١] أى فلا يصح منه (س) الدم على سوق الهدى

بلاغه القرآن من غير ضرورة ملجئة إليه ، قول لا ينبغي أن يقدم عليه أهل العلم مبالغة منهم في علو شأن الأنبياء . لأن خطأهم في الاجتهاد لا يخل بعلو شأنهم . أى بخلاف الإحلال ببلاغه القرآن فإنه شديد الخطر ، لا يقدم على سببه مسلم . ثم قال : وكان الخطأ في مسألة الأسرى أنه صلى الله عليه وسلم ومن معه نظروا إلى أن استبقاءهم سبب لإسلامهم ، وفداءهم يتقوى به على الجهاد . وخفى عليهم أن قتلهم أعز للإسلام ، وأرهب لمن وراءهم ، وأقل لشوكتهم . ولا يصح أن يكون هذا التشديد من الله لخالفته الأولى ، كما قال الكرماني . لأن مثل هذا الوعيد لا يلائم ترك الأولى . ثم قال : واففقوا على أنه صلى الله عليه وسلم لا يقر على الخطأ .

ثم ينتقل - السكال ابن الهمام - لمعالجة نقطة أخرى ، وهى الاجتهاد فى الأحكام الفقهية ، فيقول : وأما الأحكام الفقهية فمنكر الضرورى منها - وهو الذى يعرفه كل أحد حتى النساء والصبيان كفرضية الصلاة ، والزكاة ، والصوم ، والحج ، وحرمة الزنا والخمر ، وقتل النفس المحرمة ، والسرقه - كافر « لأن إنكار ما هو من ضروريات ملة الإسلام يستلزم إكراها باجتهاد باطل ، لانتفاء شرط الاجتهاد ، وهو كون المجتهد فيه نظريا بأن لا يكون (٤ - اجتهاد نبى الإسلام)

حلافه بدهيا^(١). ومنكر غير الضروري من القواعد الأصلية^(٢) ككون الإجماع حجة ، وحبر الواحد حجة ، والقياس حجة ، آثم . ومنكر غير الأصلية وهي الأحكام الفرعية الاجتهادية فالقطع على أنه لا إثم فيها على الخطيء بشرط حل الاجتهاد بأن لا يكون في مقاله دليل قاطع من نص أو إجماع ، لدلالة إجماع الصحابة على عدم تأميم الخطيء فيها ، إذ شاع اختلافهم في المسائل الاجتهادية ولا بد من خطأ واحد من المتناقضين ولم ينقل تأميم واحد لغيره ، ولو وجد لشاع لأنه أمر خطير . وعدد وقائع الخلاف من زمن الصحابة إلى انقراض المجتهدين أكثر من أن يحصى .

[١] روى البخارى (ح ١٢ ص ١٦٢ فى الديات) عن عبد الله بن مسعود ، قال صلى الله عليه وسلم : « لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله إلا بإحدى ثلاث : النفس بالنفس ، والثيب الرأى ، والمعارق لديه التارك للجماعة » . قال الحافظ بن حجر : قال ابن دقيق العيد : قد يؤخذ من قوله « المعارق لديه التارك للجماعة » أن المراد المخالف لأهل الإجماع فيكون متمسكاً يقول : مخالف الإجماع كافر . وقد نسب ذلك لبعض الناس ، وليس ذلك بالهين : فإن المسائل الإجماعية تارة يصحها التواتر بالقل عن صاحب الموضع كوجوب الصلاة مثلاً ، وتارة لا يصحها التواتر . فالأول يكفر صاحبه لخالفته التواتر ، لا لخالفته الإجماع . والثانى لا يكفر به . قال شيخنا فى شرح الترمذى : الصحيح فى تكفير منكر الإجماع تقييده بإنكار ما يعلم وجوبه من الدين بالضرورة ، كالصلوات الخمس . ومنهم من عبر بإسكار ما علم وجوبه بالتواتر .

[٢] هى التى يبنى عليها المروع .

ويستطرد فيقول : وقال الجاحظ : لا إثم على مجتهد أى مجتهد يكاف ، ولو كان الخطأ منه واقعاً في نفي الإسلام ، وكان الاجتهاد من غير المسلم . وتجرى على النافي المذكور أحكام الكفار ، لأنه لا سبيل إلى إخراج أحكام المسلمين لعدم الإسلام ولا واسطة . وما قاله الجاحظ من نفي الإثم هو مراد الغنبري^(١) بقوله : المجتهد في العقليات مصيب . وجميع المسلمين على خلاف رأيهما .

ثم ينقل عنهما فيحكي أنهما يقولان : تسكيف مجتهدى الكفار بنقيض مجتهدهم تسكيف عمالاً يطاق ، فلم يكلف إلا بما في وسعه من الاجتهاد وقد فعل . ويذكر أنه أجيب بمنع أنه فعل ما كلف به . إذ لا شك أن على هذا المطلوب الذى كلف بالوصول إليه وهو الإسلام أدلة قطعية ظاهرة بحيث لو وقع نظره في موادها الموجودة في النفس والآفاق المنادية بلسان الحال إن الطريق هكذا لا يتغير لظهوره كالشمس - لوصل قطعاً . فإذا نظر ولم يصل للحق مع ذلك علم أنه فقد شرطاً من شروط النظر ، لتقصيره وعدم التفاته إلى ما يرشده لاهماكه في مطبوعة التقليد للآباء .

[١] هو عبد الله بن الحسين الغنبري من المعتزلة (كما قال الآمدي في الأحكام) .

الفصل الثالث

بعض أمثلة من اجتهاد الأنبياء قبل نبينا صلى الله عليه وسلم :

جاء في القرآن والحديث الصحيح ما يفيد صريحه صدور أفعال من الأنبياء صلوات الله عليهم ، وصف بعضها بأنه معصية ، والبعض الآخر بأنه ذنب ، كما وصف نوع ثالث منها بأنه خطيئة . وذلك مما يدل على أنهم كانوا يجتهدون وتصدر عنهم أفعال بناء عن اجتهادهم دون أن يتلقوا فيها وحياً ، وإلا لو كانت قد صدرت عنهم بعد وحى إليهم بها لما صح أن يوجه الله إليهم لوماً ، ولا أن يلجأ أحدهم للاستغفار والضرعة والتوبة .

روى البخارى عن أنس ، قال : قال صلى الله عليه وسلم : « يجمع الله الناس يوم القيامة فيقولون : لو استشفعنا على ربنا حتى يريحنا من مكاننا فيأتون آدم فيقولون : أنت الذى خلقك الله بيده فاشفع لنا ! فيقول : لست هناكم ، ويذكر خطيئته ويقول : ائتوا نوحا أول الرسل وفى رواية فيقول : قد أخرجت بخطيئتي من الجنة ، وفى رواية : هل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة

أبيكم آدم ؟ اذهبوا إلى نوح ! ، وفي رواية : إنه نهى عن الشجرة فعصيت ،
نفسى نفسى ! ، اذهبوا إلى غيرى ! ، فيأتون نوحا فيقول : لست هناكم ،
وبدكر حطيتته ، ائتوا إبراهيم الذى اتخذه حليلا ! (وفي رواية ويدكر سؤال
ربه ما ليس له به علم - قال ابن حجر ، بعلياً على ذلك ، فخشى أن يكون
الشفاعة لأهل الموقف من ذلك -) ... إلى أن قال فى الحديث : فيأتون
موسى ، فيقول : لست هناكم ، وبدكر حطيتته (وفي رواية يقول : إني قتلت
نفساً غير نفس ، وأن يغفر لى اليوم حسبي) ... الخ .

وروى البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال صلى الله عليه
وسلم : « قال سليمان بن داود عليهما السلام : لأطوفن الليلة على مائة امرأة
كلهن يأتى بهارسٍ يحاهد فى سبيل الله ، فقال له صاحبه : إن شاء الله ! ،
فلم يقل : إن شاء الله ! . فلم تحمل منهن إلا امرأة واحدة جاءت بشق رجل :
والذى نفسى بيده لو قال : إن شاء الله لجاهدوا فى سبيل الله فرسانا أجمعون . »
والحافظ بن حجر يعلق على هذا الحديث بقوله : قال بعض السلف : به
صلى الله عليه وسلم بهذا الحديث على آفة التمنى والإعراض عن التفويض .
ولذلك نسي سليمان الاستثناء ليمضى فيه القدر ... ثم قال : وكأن سليمان
عليه السلام نسي بعد ذلك كبره لشيء عرض له فشغله .

ورواية البخارى سواء عن طريق أنس أو أبى هريرة رضى الله عنهما تنبى عن أن الأنبياء صلوات الله عليهم قبل نبينا محمد عليه السلام ، كل منهم إما أحس فى نفسه بتقصير نتيجة خطأ فى الرأى أو نسيان منه ، أو أن ما أخبر به لم يتحقق . وذلك يدل بالتالى على أن الأنبياء بشر فحسب ، إن تجاوز بهم الأمر دائرة الوحي الإلهى جاز عليهم ما يجوز على الإنسان العادى ، جاز عليهم الخطأ فى الاجتهاد ، كما يجوز عليهم النسيان . يتولد عندهم الإحساس بالذنب والشعور بالملامة كما يتولد عند الإنسان العادى ، وتتوق نفوسهم إلى التخلص من آثاره بالتضرع وطلب المغفرة من المولى جل شأنه وتزداد شوقاً إلى ذلك أكثر من الإنسان العادى لما يتمتع به الواحد منهم من منزلة القربى من الله سبحانه وتعالى كرسول اصطفاه لأداء رسالته .

ولو أن كل ما أتى به من قول أو فعل كان عن الله والله لوجب أن يتحقق مصمون قوله ويتنزه عن الخطأ فعلة حين القول والفعل أو بعد القول والفعل . وإلا كان فى رسالة الله مالا يصح أن يكون لله الذى هو الحق منذ الأزل إلى الأبد^(١) .

[١] وقد تقدم بعض ما وقع من بعض الانبياء غير ما ذكرهنا . انظر كلام اس حرم وابى تيمية فى الفصل الثانى من الباب الأول صفحة (٣١ - ٣٤) .

البَابُ الثَّانِي

الفصل الأول

اجتهاد نبينا صلى الله عليه وسلم

تقديم :

سنعرض في هذا الباب لكثير من الصور التي بدا فيها رأيه صلى الله عليه وسلم ، وهي كثيرة متنوعة . فمرة بدا الرأي في صورة الظن ، وأخرى في صورة العلم أو الجزم ، وثالثة في صورة التمتي ، ورابعة في صورة الأمر أو الدعاء ... الخ .

وسيعلم القارئ من عرضها :

أولاً :

- (١) إن كان قد أذن له صلى الله عليه وسلم بالاجتهاد ، أم كان لا يصدر عنه فعل ولا قول مثلاً إلا بإذن خاص من الله ؟
- (٢) وإن كان له أن يجتهد فهل كانت دائرة اجتهاده أمور الدنيا الصرفة ، أم معها أمور الدين كذلك ؟ .

(٣) وإن كان له أن يجتهد في الكل فهل وقع منه صلى الله عليه وسلم اجتهد في أبواب العبادات كالصلاة ، والحج ، والصيام ... وما يتصل بذلك من دعاء واستغفار وغيرها ؟ .

(٤) ثم هل وقع منه صلى الله عليه وسلم اجتهد في الأمور الغيبية أيضاً ، أم كان اجتهداه قاصراً على غير الغيبيات ؟ .
وثانياً :

(١) إن ثبت أنه صلى الله عليه وسلم كان يجتهد فهل كان يصيب دائماً ، أولاً ؟ .

(٢) وإن كان الثاني فهل كان يقع منه صلى الله عليه وسلم غير الصواب حتى في الأمور الدينية ، أم كان ذلك في أمور الدنيا فقط ؟ .
وثالثاً :

(١) إن كان يقع منه غير الصواب في الجميع فهل يجب أن يوحى إليه صلى الله عليه وسلم فوراً في كل أنواع اجتهداه ، أم يجوز أن يتراخى بيان الصواب ؟ .

(٢) وإن كان الثاني فهل ذلك يكون عاماً في أمور الدين والدنيا ، أم في أمور الدنيا فقط ؟ أما في أمور الدين فيجب بيان الصواب فوراً ؟ .

ورابعاً :

(١) إذا علمنا أن رؤيا الأنبياء وحى فهل يتناول اجتهاده صلى الله عليه وسلم تعبيرها ، فيصيب تارة دون أخرى ؟ .

وخامساً :

(١) إن قلنا : إنه كان يجتهد في كل شيء فهل امتد اجتهاده صلى الله عليه وسلم إلى فهم القرآن ، أم كان ذلك بالوحى فقط ، أم منه ما كان بالوحى ومنه ما كان بالاجتهاد ؟ .

(٢) وإن كان منه ما كان باجتهاد فهل يجوز عليه فيه غير الصواب أيضاً ؟ .

(٣) وإن كان يجوز فهل يوحى إليه بوجه الصواب فوراً ، أم يجوز التراخي لوقت الحاجة ؟ .

وسادساً :

(١) هل سكوته على ما يقع بحضرته صلى الله عليه وسلم يكون حجة على صحة ما وقع ؟ .

ما برأ منه اجتهاده في صورة « الظم » :

١ — عرض صلى الله عليه وسلم لمن غضب عليهم الله من بنى إسرائيل
مسخهم حيوانات ، وظن أن من مسخ منهم يجوز أن ينسل ، وأن الفأر
والصب كلاهما من نسل الممسوخ . وآية ذلك أن الفأر إذا وضع لها ألبان
الإبل لم تشربها وإذا وضع لها ألبان الشاء شربتها — وتفصيل الثانية على الأولى
كان من عادات بنى إسرائيل — وكذلك توقف في إباحة أكل الضب
والنهى عنه .

(١) يروى في ذلك البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى
صلى الله عليه وسلم أنه قال : « فقدت أمة من بنى إسرائيل لا يدري ما فعلت .
وإني لا أراها إلا الفأر : إذا وضع لها ألبان الإبل لم تشرب وإذا وضع لها ألبان
الشاء شربت ^(١) » .

[١] فى مسلم عن أبى هريرة مثل هذه الرواية . ونصها : فقدت أمة من بنى إسرائيل
لا يدري ما فعلت ، ولا أراها إلا الفأر . ألا ترونها إذا وضع لها ألبان الإبل لم تشرب
وإذا وضع لها ألبان الشاء شربته .

القردة من مسخ فقال : « إن الله لم يجعل لمسخ سلا ولا عقبا ، وقد كانت القردة والخنازير قبل ذلك » .

ويروى أبو داود بسنده عن ابن مسعود أيضاً أنه قال : سألنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن القردة والخنازير ، أهي من نسل اليهود ؟ فقال : « لا . إن الله لم يلعن قوماً قط فيمسخهم فكان لهم نسل . ولكن هذا خلق كان . فلما غضب الله على اليهود فمسخهم جعلهم مثلهم » .

ويقول ابن كثير في تفسيره - نقلاً عن ابن أبي حاتم ، عن مجاهد ، عن ابن عباس - : إن الدين جعلوا قردة فَوَاقًا^(١) ثم هلكوا . ما كان لمسخ نسل ! . ويذكر أيضاً - نقلاً عن الصحاح ، عن ابن عباس - : بعد جعلهم قردة لم يحموا إلا ثلاثة أيام ، ثم قال : لم يعيش مسخ قط فوق ثلاثة أيام ، ولم يأكل ولم يشرب ، ولم ينسل .

والحافظ بن حجر في توفيقه بين هذين الضربين من الأحاديث لم يخرج عما ذكرناه من أنه أبدى رأيه أولاً عن اجتهاد منه ثم كان وحى الله له بعد ذلك . ولذلك يقول : قال الجمهور : إنه صلى الله عليه وسلم قال ما قال أولاً قبل أن

[١] الفواق : الرمن اليسير ، قدر ما بين حلقى الياقة .

يوحى إليه بحقيقة الأمر في ذلك . ولذا لم يأت الجزم عنه بشيء من ذلك ،
بخلاف النفي فإنه حرم به ، كما في حديث ابن مسعود المتقدم .

لكن أكان الوحي بحقيقة الأمر في ذلك على الفور أم على التراخي ؟ -
يصعب علينا أن نحدد الفترة الزمنية بين الأمرين ، بين إبداء الرأي والوحي .

ما برأ من إجهاده في صورة « القطع » :

١ — سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم في مصائر أولاد المشركين
فحكم على سبيل القطع بأنهم تمتع لآبائهم .

يروى ابن كثير في تفسيره عن الحافظ أبي يعلى عن البراء بن عازب أنه
قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أولاد المشركين ، فقال : « هم
مع آبائهم » .

ويروى الإمام أحمد ، وأبو داود ، عن عائشة أنها قالت : سألت رسول
الله صلى الله عليه وسلم عن أولاد المشركين ، فقال : « هم تمتع لآبائهم » .
فقلت : يا رسول الله بلا أعمال ؟ . فقال : « الله أعلم بما كانوا عاملين » .

وروى أبو داود عن الشعبي — بلفظ عام — أنه قال : قال رسول الله صلى
الله عليه وسلم : « الوائدة والموءودة في النار » .

٢ — ولكنّه عليه الصلاة والسلام في روايات أخرى تحدث عن مصيرهم بما يعد مقابلاً للحكم السابق :

(١) مرة وكل مصائرهم إلى علم الله . يروى مسلم عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : دعى رسول الله إلى جنازة صبي من الأنصار ، فقلت : يارسول الله ! طوى لهذا . عصفور من عصافير الجنة ، لم يعمل سوءاً ، ولم يدركه . قال : « أو غير ذلك يا عائشة ؟ . إن الله خلق للجنة أهلاً خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم ، وخلق للنار أهلاً خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم » .

(ب) ومرة يحكم عليهم بأنهم على الفطرة والقبالية لأن يتجه بهم ذات اليمين أو ذات اليسار .

يروى مسلم عن أنى هريرة أنه قال : قال صلى الله عليه وسلم : « ليس من مولود يولد إلا على الفطرة حتى يعبر عنه لسانه » .

ويروى أحمد والنسائي عن الأسود بن سريّ عن بنى سعد أنه قال : غرّوت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أربع غزوات ، فتناول القوم الذرية بعد ما قتلوا المقاتلة . فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فاشتد عليه ثم قال : « ما بال أقوام يتناولون الذرية ؟ » . فقال رجل : يارسول الله ! أليسوا أبناء المشركين ؟ . فقال : « إن خياركم أبناء المشركين . ألا إنها ليست سمة تولد إلا ولدت على الفطرة فما تزال عليها حتى يبين عنها لسانها » .

ويروى الحافظ أبو بكر اليرقاني في كتابه المستخرج على البخارى عن سمرة عن النبی صلی الله عليه وسلم أنه قال : « كل مولود يولد على الفطرة » .
فناداه الناس يا رسول الله ! وأولاد المشركين ؟ . فقال : « وأولاد المشركين » .
(ح) ومرة يميل بهم إلى أنهم خنفاء مساهون .

يروى مسلم عن عياض بن حماد ، عن رسول الله صلی الله عليه وسلم ،
عن الله عز وجل أنه قال : « إني خلقت عبادي خنفاء مسلمين » .
(ز) وأخرى يحكم عليهم بأهم من أهل الجنة .

يروى الطبراني عن سمرة أنه قال : سألنا رسول الله صلی الله عليه وسلم
عن أطفال المشركين ، فقال : « هم حدم أهل الجنة » .

ويروى أحمد عن حسان بنت معاوية من بنى صريح أنها قالت . حدثني
عمي قال : قلت يا رسول الله امن في الجنة ؟ . قال : « النبی في الجنة ، والشهيد
في الجنة ، والمولود في الجنة ، والوثيد في الجنة » .

فمجموع هذه الأحاديث يعطى أنه أثر عن الرسول عليه الصلاة والسلام
في أولاد المشركين ومصيرهم قولان : قول يلحقهم بأبائهم ، وآخر يبعدهم عن
هذه التبعية لأبائهم وأحد هذين القولين صدر من غير شك على سبيل
الاجتهاد منه ، والثاني عد تصويبا له من الله . أما أيهما كان اجتهدا وأيهما
(هـ)

كان تصويبها ، فالعلماء على أن الرأي المختار منهما عدم إلحاق أبناء المشركين بأناسهم مستندين إلى الآية الكريمة : [وما كنّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً] .

والمجاري رضى الله عنه عندما تعرض لأحاديث هذا الباب ذكرها كما يأتي :

ذكر أولاً حديث ابن عباس ، وهو أنه سئل صلى الله عليه وسلم عن أولاد المشركين فقال : « الله إذ خلقهم أعلم مما كانوا عاملين » ،

وتى محدث أى هريرة ، وهو أنه سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذراري المشركين فقال : « الله أعلم مما كانوا عاملين » ،

وتلت محدث أى هريرة ، وهو أنه قال : قال صلى الله عليه وسلم : « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » ،

وذكر أحيراً حديث سمرة بن جندب ، وهو أنه قال في كلام طويل : قال صلى الله عليه وسلم : « ذات يوم أتاني الليلة آتيان فاطلقت معهما . . .

إلى أن قال : فاطلقتنا حتى انتهينا إلى روضة حضراء فيها شجرة عظيمة وفي أصلها شيخ وصبيان - وفي رواية : وإذا بين ظهري الروضة رحل طويل لا أكاد أرى رأسه طولاً في السماء ، وإذا حول الرجل ولدان مارأيت قط أكثر منهم - فقلت : ما هذا ، وما هؤلاء ؟ فقالا : أما الرجل إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، وأما الولدان الذين حوله فكل مولود مات على الفطرة . . .

قال سمرة : فقال بعض المسلمين : يا رسول الله ! وأولاد المشركين ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « نعم وأولاد المشركين » .

والحافظ بن حجر في شرحه لهذه الأحاديث يعلل تربب البخاري لها على هذا النحو بقوله :

رتب المصنف أحاديث الباب ربيعاً يشير إلى المذهب المختار من أن أولاد المشركين في الجنة . فانه صدره بالحديث الدال على التوقف ، ثم ثنى بالحديث المرجح لكونهم في الجنة ، ثم ثلث بالحديث المصرح بذلك فانه قال في سياقه : « نعم وأولاد المشركين » .

ونقل عن النووي سبب اختيار هذا المذهب فيما يحكيه عنه هنا بقوله : والمذهب الصحيح المختار أنهم في الجنة . وهذا ما ذهب إليه الحققون ، لقوله تعالى : [وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى تَبْعَثَ رَسُولًا] . وإذا كان الله لا يعذب العاقل لكونه لم تبلغه الدعوة فلا أن لا يعذب غير العاقل من باب أولى .

وذكر النووي أيضاً في شرحه حسد عائشة الذي رواه مسلم متعلّقاً بجنّازة الصبي من الأنصار : أن من يعتد به من علماء المسلمين أجمع على أن من مات من أطفال المسلمين فهو من أهل الجنة ، لأنه ليس مكلفاً . كما ذكر

أن بعض من يعتد به أيضاً توقف في هذا الحكم ، لحديث عائشة هذا . ثم روى ما أجاب به العلماء توفيقاً بين الرأيين من أنه يحتمل أنه صلى الله عليه وسلم قال ذلك - الحديث المروى عن عائشة - قبل أن يعلمه الله أن أطفال المسلمين في الجنة فلما علم قال : « ما من مسلم يموت له ثلاثة أولاد لم يبلغوا الحلم إلا أدخله الله الجنة بفضل رحمته إياهم » ^(١) .

١ — وفي حادثة أخرى يروى أحمد ، بأسناد على شرط البخارى ، عن عائشة أن يهودية كانت تخدمها ، فلا تصنع عائشة إليها شيئاً من المعروف إلا قالت لها اليهودية : وراك الله عذاب القبر ! . فقلت : يا رسول الله ! هل للقبر عذاب ؟ قال : « كذبت يهود : لا عذاب دون يوم القيامة » ^(٢) .

فنبى صلى الله عليه وسلم العذاب دون يوم القيامة على وجه القطع .

٢ — ولكنه في رواية أخرى بتبته :

[١] رواه البخارى عن أس بن مالك .

[٢] في رواية البخارى عن عائشة روح النبى صلى الله عليه وسلم أن يهودية حاءت تسألها ، وقالت لها : أعادك الله من عذاب القبر . فسألت عائشة رسول الله صلى الله عليه وسلم : أيعذب الناس في قبورهم ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « أما عائد بالله من ذلك » .

(١) يروى مسلم عن عائشة أنها قالت : دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعندى امرأة من اليهود ، وهى تقول : هل شعرت أسكم نفتنون فى القبور ؟ . قالت : فارتاع صلى الله عليه وسلم ، وقال : « إنما تفنن يهود » . قالت عائشة : فلمتدأ ليلالى ، ثم قال صلى الله عليه وسلم : « هل شعرت أنه أوحى إلى أسكم نفسون فى القبور ؟ » . قالت عائشة : فسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك يستعيد من عذاب القبر .

(ب) ويروى البخارى عن أسماء بنت أبى بكر أنها قالت : أتيت عائشة حين خَسَمَتِ السُّمُسُ فإذا الناس قيام يصلون ، وإذا هى قائمة تصلى ... إلى أن قالت : فلما انصرف صلى الله عليه وسلم حمد الله وأثنى عليه ثم قال : « ما من شئ كنت لم أره إلا وقد رأيته فى مقامى هذا ، حتى الجنة والنار . ولقد أوحى إلى أسكم تفتنون فى القبور مثل - أو قريباً من-^(١) فتنة الدجال » .

والحافظ بن حجر يقرر اختلاف هذه الروايات ، ويحتار فى تعليله ما قرره النووى هنا من أنه صلى الله عليه وسلم حينما نفى عذاب القبر كان ذلك قبل

[١] الشك من روى عن أسماء .

أن يُعلمه الله ، ولما نزل الوحي أقر بأن هناك عذاباً للقبر . .

ويستطرد الحافظ فيقول : إن في حديث الكسوف ما يدل على أنه صلى الله عليه وسلم إنما علم بحكم عذاب القبر وهو بالمدينة وفي أواخر الأمر ، لأن تاريخ صلاة الكسوف يدل على ذلك . لأنها كانت يوم مات ولده إبراهيم عليه السلام وموت إبراهيم كان في السنة العاشرة .

ويستمر فيذكر : أن الذي نفاه صلى الله عليه وسلم أولاً إنما هو وقوع عذاب القبر على الموحدين ، ثم أعلمه الله بأن ذلك قد يقع على من يشاء منهم ، فجزم به ، وحذر منه ، وبالغ في الاستعاذة منه تعليماً لأئمة صلى الله عليه وسلم .

وهنا في هذه المسألة نجد اجتهاد الرسول صلى الله عليه وسلم صَوَّبَ بوحي من الله . لكن العترة التي وقعت بين الرأي وتصويبه لا تحدد إلا إذا علم على وجه الدقة : من هي اليهودية التي كانت تتردد على عائشة رضي الله عنها وعلم وقت هذا التردد .

ما بداهه اجتهاده في صورة التمني :

- ١ - أحب صلى الله عليه وسلم أن يكون البيت الحرام قبلته في الصلاة ،
بعد ما مكث متمحفا فيها إلى بيت المقدس أكثر من ستة عشر شهراً .
- ٢ - فأجابه الله إلى ما طلب ، وصرف قبلته إلى الكعبة عما أنزله في
الآية الكريمة : [قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ
قِبْلَةً تَرْضَاهَا] .

يروى البخارى عن الدراء بن عازب أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى
إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً ، وكان يعجبه أن تكون
قبلته قبل البيت - وفي رواية : كان يحب أن يوجه إلى الكعبة - فأنزل الله
تعالى : [قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا]
فتوجه إلى نحو الكعبة^(١) .

ويحدد ابن كثير في تاريخه - نقلاً عن ابن عباس وابن مسعود - أن القبلة
صرفت في شعبان على رأس ثمانية عشر شهراً من مقدم رسول الله صلى الله عليه

[١] وروى ابن ماجة من طريق أبي بكر بن عياش ، قال : صليبا مع النبي صلى الله عليه وسلم نحو بيت المقدس ثمانية عشر شهراً وصرفت القبلة إلى الكعبة .

وسلم المدينة ، ويزيد تحديداً بقوله : إن الجمهور الأعظم على أنها صرفت في النصف من شعبان على رأس ثمانية عشر شهراً من الهجرة .

ويحمل النقل عن ابن عباس - في رواية أحمد عنه - في : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يصلي وهو نمكة إلى بيت المقدس والكمعة بين يديه . فلما هاجر إلى المدينة ولم يمكن الجمع بينهما صلى إلى بيت المقدس . ويعمل رغبة الرسول في التوجه إلى الكعبة في الصلاة نأها قلة أبيه إبراهيم ، وقد جاء داعياً إلى احياء ملته وتحديد دعوته . والتوجه إليها أدعى إلى إيمان العرب سريعاً ، وهم نواة الدين وأساس الدعوة .

وهنا تراعى الوحى في إجابة الرسول إلى ما أحبه ، فاجتهد عليه السلام أولاً وبدا اجتهداه في صورة رعية وأمنية فحققها له الله سبحانه وتعالى ، وبذلك أصبح ما رآه بالاجتهاد مشروعاً مقراً عليه من ربه .

وفي جانب آخر أثناء دعوته صلى الله عليه وسلم للإسلام كان بعض زعماء الكفار يحاول في صور شتى أن يضع العراقيين في سبيل انتشار دعويه ، مرة بالاستحقاف منه واتهامه بما لا يليق بداعٍ إلى الحق ، وأخرى بتقديم طلبات مبدين ضرورة إجاتها حتى يكون ذلك تمهيداً لتصديقه والسير في اتجاهاه . شأنهم

في ذلك شأن أى فريق معارض ، معاند في معارضة . والرسول عليه السلام كانت تغلب عليه طبيعته البشرية في بعض الأحيان إزاء ذلك ، مرة يتأثر في دحية نفسه ما تهمونه به ، وأخرى يرمى نفسها أن يأتي الله على يديه بما يحقق بعض ما طلبوا تحقيقه . لكن الله حلت قدرته وعزت إرادته هو الكفيل بأن ينصر رسوله في دعوته إلى الحق ، ولذا كان يتكفله تقوية عزمه وطمأنينته على مستنقل دعوته حين تستحكم الأثرة ، أو تشتد الرغبة في محاربتهم .

١ - يحكي الله سبحانه وتعالى مثل قوله : [لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ، وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكَ لَقُصِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ ، وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ، قُلْ إِنْ اللَّهُ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُرْسِلَ آيَةً ، وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ] (١) . بعض ما كان يطلبه الكفار من رسوله الكريم ويتمنى أن يحبيه الله إليه .

٢ - لكن لأمر يرتبط بمصلحة الدعوة ، وبحكمة الألوهية لم يحبه الله في بعض الأحيان إلى ما تمى ، وهو العليم الخبير .
يقول تعالى : [قَدْ عَلِمَ إِنَّهُ لَيَخْرُجُكَ الدِّيُّ يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ ، وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بآيَاتِ اللَّهِ مَجْحَدُونَ وَلَقَدْ

كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا ، وَأَوْدُوا ، حَتَّى
 أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ، وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ، وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَأِ
 الْمُرْسَلِينَ وَإِنْ كَانَ كَثِيرٌ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ
 تَنْتَفِيَّ نَعْقَمَا فِي الْأَرْضِ أَوْ سَلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ نَآيَةُ ، وَلَوْ
 شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى ، فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ
 الْخَالِئِينَ ^(١) .

والمفسرون يقولون في معنى هذه الآيات ^(٢) : إن زعماء الكفار كانوا

[١] آيات ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ من سورة الأنعام .

[٢] ويقول صاحب المار : والخمائر المراد عما يحرمه مما يقولون انه هو ما تقدم أول
 السورة من قولهم : [لولا أنزل عليه ملك . الخ] وما في معناه . والكلام في طائفة
 الخاضعين كبراً وعاداً كأبي جهل ، والأحنس بن شريق الثقفي . وهؤلاء لم يكونوا يعتمدون
 كدنه صلى الله عليه وسلم ، وإنما كانوا يحاولون صرف الناس عنه تارة ، فقولهم : ساحر
 وما مثله ، وتارة : ناقترح آيات مخصوصة من نزول ملك ، أو أن يكون له بيت من
 رحرف . الخ .

والمعنى : أن الرسول صلى الله عليه وسلم لشدة حرصه على هداية قومه كان يتمنى لو آتاه
 الله بعض ما طلب زعماءهم طاماً أنهم بذلك يؤمنون فيتبعهم من عداهم فيقطع الشر ويعم
 الهدى — فكان الجواب : إنك إن استطعت الإتيان بآية مما اقترحوا من عند نفسك فافعل
 أي إنك لا تستطيع يا محمد الإتيان بشيء من تلك الآيات ولا اقتضت مشيئتنا أن نؤتيك ذلك
 لعلنا بأن ذلك لا يكون سنداً لما تحب من هدايتهم ، لأنهم معاندون عن معرفة فلا يدفع فيهم
 شيء . ولو جشاً بما اقترحوا ولم يؤمنوا لأهلكناهم [وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا
 ملكاً لقضى الأمر ثم لا ينظرون] .

بمقترحون الآيات عليه صلى الله عليه وسلم ، وكان صلى الله عليه وسلم يتمنى لو أناه الله بعض ما طلبوا حرصاً على هدايتهم ، ودفعاً لحزنه وأسنفه لسكرهم . ولكن الله يعلم أن أولئك المقترحين الجاحدين لا يؤمنون وإن رأوا من

= ومعنى [لو شاء الله لجمعهم على الهدى ، فلا تكون من الجاهلين] : لو شاء الله جمعهم على ما حثت به من الهدى لجمعهم يجعل الإيمان ضرورياً لهم ، كالملائكة . ولكنه تعالى شاء أن يكون بالاختيار ليتحقق نظام هذه الدار المعدة للتكليف المستمتع للنشأ والعقاب فإذا عرفت أن هذه سعة الله في هذا النوع من الخلق فلا تكن من الجاهلين بسعة الله الذين يتممون ما يروبه حسناً ، وإن كان حصوله بمتعة لكونه محالاً للحكمة الإلهية فالجهل هنا صد العلم ، لا صد الحلم . وليس كل جهل بهذا المعنى عيباً ، لأن المحلوق لا يحيط بكل شيء علماً . وإنما يدم الإنسان بجهل ما يحب عليه ، ثم يجهل ما يدعى له ويعد كما لاقى حقه إذا لم يكن معدوراً في جهله . قال تعالى في وصف الكفار المتعصبين : [يحسبهم الجاهل أسياء من التعصب] . فوصف الجهل هنا لم يكن دماً . وكل ما يتوقف علمه على الوحي الإلهي لا يكون جهل الرسول به عيباً قبل نزول الوحي به . وإنما الذي يدم هو الجهل المراد للسهة وهو صد الحلم .

وما قيل لدينا صلى الله عليه وسلم يشبه ما قيل لسيدنا نوح عليه السلام : [إني أعطتك أن تكون من الجاهلين] — أى سبب لإدخال ولدك الكافر في عداد أهلِكَ المؤمنين . وإنما اقترن نهى نوح بالوعظ لأن عاطفة الرحمة الوالدية حملته على سؤال ما ليس له به علم اعتماداً على استمساك احتشادي غير صحيح ، لأنه فهم أن وعد الله بنجاة أهله يشمل أهل النسب وإنما مراد الله أهل الإيمان . ورحمة محمد صلى الله عليه وسلم خاتم الرسل كانت أعم وأشمل لأنها للأمة قاطبة لا للولد والقرى فقط .

وعاية ما تشير إليه الآية — ولو شاء الله لجمعهم على الهدى — أنه تمى ولكن لم يسأل صراحة وأيضاً لو سأل لسأل آية يهتدى بها الصال من قومه لا الكافر من أهله فقط . فلذا اكتفى سبحانه وتعالى في إرشاده بالتهى فقط ، وحسن في إرشاد نوح النصريح بالوعظ ، والله أعلم .

الآيات ما يطلبون ، وفوق ما يطلبون ، كما قال : [وَلَوْ نَرَّأَمَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا : إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ] (١) .

والرسول عليه الصلاة والسلام إزاء طلب الكفار اعترته حالة نفسية هي حالة المتمنى ، وذلك من حالات الإنسان كإسـاء . ولا شك أن نزول الآية الكريمة بعدم احاقته إلى ما تمى قطع لهذه الحالة عنده أو تصحيح للوضع كما يجب أن يكون عليه . والرسول الكريم يتمنيه هذا كماه رأى ذلك لتيسير السبيل لدعونه . والله جل شأنه بعدم موافقته على ذلك - نداء على علمه بطبيعة هؤلاء الطالبين وأمثالهم - قد حدد الطريق السليم لنجاح دعوة رسوله صلى الله عليه وسلم .

لكن أكان التحديد منه جل شأنه للطريق القويم فور تمنيه صلى الله عليه وسلم ؟ أم حصلت بين الأمرين فترة زمنية تجعل وقوع أحدها إثر الآخر معتبراً فى تصور الإنسان على سبيل التراخى ؟ . والحكم على ذلك أيضاً شاق عسير . بالأخص إذا علم أن التمنى أمر نفسى لاستطاع معرفة بدايته عند المتمنى لغيره . والرسول عليه السلام وهو الذى كان هنا فى حال المتمنى لم

[١] آية ٧ من السورة السابقة .

يخبر بذلك ، والله وهو الذى وسع علمه كل شئ لم يوح على لسان نبيه المصطفى أيضاً ذلك .

وفى حادثة ثالثة كان من تقاليد العرب فى جاهليتهم أنه لا يتزوج الرجل زوجة متبناه ، إذا طلقها أو مات عنها . لأنهم كانوا يعتبرون زوجة المتبنى كزوجة ابن الصلب تماماً . ولما جاء الإسلام بإبطال هذه العادة وكانت مسائل النكاح من الحساسية عند العرب بدرجة شديدة أراد الله أن يكون تشريع الإبطال نافذاً على وجه يقطع كل قول ويرفع كل حرج ، فأمر رسول الله بأن يسمع طلاق زيد إذا جاءه طالباً طلاق زوجته وأن يتزوجها هو نفسه ليبطل هذه العادة .

١ - وكان صلى الله عليه وسلم من جهته يخشى أن يكون فى ذلك فرحة يدخل منها متقولوا المنافقين ، وفرصة ينتهزها الخصوم من الكافرين فتبنى أن يجعل الله إبطال هذه العادة على يد غيره ، تمنى صلى الله عليه وسلم ذلك فى دحيلة نفسه ولم يفتح به أحداً .

٢ - فعوتب على ذلك من ربه ، وأمر الله فى ذلك آيات كثيرة من سورة الأحزاب . ومنها | وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ [١] .

[١] ستأتى زيادة إيضاح لهذه الحادثة عند الكلام عن « ما بدا من احتجاده صلى الله عليه وسلم فى صورة الأمر » .

والحكم هنا أيضاً في ترتب أحد الأمرين على الآخر ، إن كان على الفور أم على التراخي ، مثل حكمنا به في سابقه للسبب الذي ذكر .

ما برأ منه إجهاده في صورة « أنه هم ولم يفعل » :

في القرآن الكريم بعض آيات يؤذن ظاهرها بتوجيه العتاب من قبل الله سبحانه وتعالى إلى الرسول صلى الله عليه وسلم على أمر نفسي جال بخاطره ولم يتعد ذلك إلى دائرة التنفيذ. فالله تعالى يقول : [فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كُتُبٌ ، أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ ، إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ ، وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ]^(١).

والبغوى في تفسير هذه الآية يذكر سبب نزولها ، فيقول^(٢) :

١ — إن كفار مكة لما قالوا : أنت بقرآن غير هذا ليس فيه سب لأهلنا هم صلى الله عليه وسلم أن يدع آلهتهم ظاهراً .

٢ — وأنزل الله : [فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ ... إلخ] .

وهي مؤذنة بتوجيه عتاب ضمني على ما قام بنفسه من « العزم والهم » .
ويقول الله تعالى في موضع آخر :

[١] آية ١٢ من سورة هود

[٢] بعد أن يشرح الحملة الأولى منها بقوله : فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك ، أى فلا تملعه إياهم .

[وَإِنْ كَادُوا لَيَعْتَمِدُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْمَا إِلَيْكَ لَتَعْتَرِيَّ عَلِيمًا غَيْرَهُ وَإِدًّا لَاتَخَذُوكَ حَايِلًا وَلَوْ لَا أَنْ تَبْتَئَكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا]^(١) .

وسعيد بن حمير يروى - في تحديد رول هذه الآية الكريمة - :

١ - أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يستلم الحجر الأسود فمعهته قريش ، وقالوا . لا بدعك حتى تستلم آلهتنا وتمسكها .

٢ - فحدث صلى الله عليه وسلم نفسه : وما على إذا فعلت ذلك والله تعالى يعلم أى لها لكاره بعد أن يدعو حتى أستلم البيت ؟ - وقيل : طلبوا منه صلى الله عليه وسلم أن يمس آلهتهم حتى يسلموا ويتبعوه ، فحدث نفسه بذلك - فأمر الله هذه الآية .

والأوسى في تفسيره يذكر سبباً آخر لرول هذه الآية ، ويقول : وأخرج ابن أبي حاتم عن حمير بن نفير أن قريشاً أتوا النبي صلى الله عليه وسلم ، فقالوا له : إن كنتم أرسلت إلينا فاطرد الذين اتبعوك من سقاط الناس ومواليهم لنكون نحن أصحابك ! ، وكان صلى الله عليه وسلم يشتد عليه فراق قومه ، ويجب إسلامهم ، فرق لسلامهم فزلت ... وفي شرحه لها

[١] آيتا ٧٣ و ٧٤ من سورة الإسراء .

يقول : والمعنى : إنك إن اتبعت أهواءهم أحللت نفسك محل المفترى علينا ،
لأنك بذلك أوهمت أن ذلك بوحى فكنت كالمفترى . والله أعلم .
وأيّاً كان سبب نزول هذه الآية أو التي قبلها فكلتاها تعطى أن رسول
الله صلى الله عليه وسلم جال مخاطره أمر يمسى يحول عادة مخاطر الإنسان
كإسان ، ثم تبلور هذا الأمر النفسى فى صورة « عرم » على تنفيذه ، فعاتبه
الله على ذلك مبيناً له حكمته الإلهية فى خلاف ما هم على فعله .

وكذا فى الحديث الشريف منه ما يعبر عن هذه الحال النفسية للرسول
صلى الله عليه وسلم ، وهى حال الهم بفعل أمرٍ ما ، ثم عدم فعله لمصلحة فى
الترك .

روى البخارى عن أنى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله
عليه وسلم قال .

١ - « والذى نفسى بيده لقد هممت أن آمر بحطب فيحطب ثم أمر
بالصلاة فيؤذن لها ، ثم أمر رجلاً فيؤمّ الناس ، ثم أحالف^(١) إلى رجال
فأحرق عليهم^(٢) بيوتهم ، والذى نفسى بيده لو يعلم أحدكم أن يحذر عرقاً^(٣)

[١] أى آيتهم من حلفهم . قال الجوهرى : حالف إلى فلان أتاها إذا عاب عنه .
[٢] هدايشعر بأن العقوبة ليست قاصرة على المال؛ بل المراد تحريق من فى البيوت ، والبيوت
تبع . وفى رواية مسلم : « فأحرق بيوتاً على من فيها »
[٣] العرق بفتح فسكون ، فال الحليل : العرق عظم عليه لحم .

سمينا ، أو مرمانين^(١) حسنتين لشهد العشاء . وفي رواية مسلم : « أخر صلى الله عليه وسلم العشاء ليمسلة فخرج فوجد الناس قليلا هفصب . . فدكر الحديث . » .

٢ - ولكنه لم يفعل ما هم على فعله إما باجتهاد آخر ، أو بوحى من الله فى ذلك .

ويروى مسلم^(٢) عن عائشة رضى الله عنها ، عن حذامة بنت وهب الأسدية أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :
١ - « لقد هممت أن أمهى عن سكاك الغيلة ،

٢ - حتى ذكرت أن الروم وفارس يصنعون ذلك فلا يضر أولادهم » .^(٣)

[١] بثنية مرماة قيل : هى سهم يتعلم عباه الرمي . وقال ابن المنير : وتثنيته تشعر تكرار الرمي ، ويكون صلى الله عليه وسلم أراد أن المتخلف قد جمع بين ما يؤكل وبين ما يتلهى به . قال ابن حجر : وفيه إشارة إلى دم المتخلفين عن الصلاة بوصفهم بالحرص على الشيء الخفيف من مطعوم أو ملعوب به مع التهرب فيما يحصل رفيع الدرجات وهـ.ارل السكرامة .

أما سبب عدم تنفيذ ما هم به صلى الله عليه وسلم هنا فعلمه هو ما سيأتى فى حديث أبي هريرة عند البخارى الآتى فى ما بدا اجتهداه صلى الله عليه وسلم فى صورة « الطاب » ، حيث رجع صلى الله عليه وسلم عن أمره بتجريق رجال أفسدوا ، وقال : « إن النار لا يمدد بها إلا الله » .

[٢] فى باب جوار العيلة : والعيلة هى وطء المرصع .

[٣] وفى رواية أخرى عن مسلم عن حذامة أيضا قالت : حضرت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أناس وهو يقول : « لقد هممت أن أمهى عن العيلة ، فطرب فى الروم وفارس فإذا هم يغفلون أولادهم فلا يضر أولادهم ذلك شيئا » .

قال العلماء : وسبب همه صلى الله عليه وسلم بالمهوى عنها خوف الضرر على الولد الرضيع . وكانوا يقولون : إن الأطباء ترى هذا اللين داء ، إذا شربه الولد ضوى واعتل . فلذا كانت العرب تكرهه وتتقيه بقدر الطاقة .

والنوروى يعلق على هذا الحديث بقوله : وفي الحديث جواز احتضاده صلى الله عليه وسلم ، وبه قال جمهور أهل الأصول .

وأيضاً هنا في صورة العزم وعدم العمل يشق على الإيسان تحديد وقت العدول عن تنفيذه صلى الله عليه وسلم ما هم أن يعمل ، للسبب الذى ذكرناه فيما سبق .

ما برأ منه اجتهداه في صورة « الطلب » :

روى البخارى عن أى هريرة رضى الله عنه أنه قال : نعمنا صلى الله عليه وسلم في نعت ، فقال :

- ١ - « إن لقيتم فلاناً وفلاناً - لرحلين من قريش سماهما - فحرقوها بالنار ،
- ٢ - ثم آتيناه نودعه حين أردنا الخروج ، فقال : إني كمت أمرتكم أن تحرقوا فلاناً وفلاناً بالنار ، وإن النار لا يعذب بها إلا الله ، فإن أخذتموهما

فاقتلوهما » . وفي رواية ابن إسحاق : « . . . ثم رأيت أنه لا ينبغي أن يعذب بالنار إلا الله » (١) .

ويعلق الحافظ بن حجر بقوله : وفي الحديث جواز الحكم بالشيء احتهاذا ثم الرجوع عنه .

ويروى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة أنه قال : كنا قعوداً حول رسول الله صلى الله عليه وسلم — معنا أبو بكر وعمر في نفر — فقام صلى الله عليه وسلم من بين أظهرنا فأطأ علينا ، وحسبنا أن يقطع دوننا ، وفرعنا ، فقمنا ، فكنت أول من فزع حتى أنبت حائطا للأبصار لبي النجار فدرت حوله حتى دخلته

[١] قال الحافظ بن حجر في التعليق على هذا الحدث : وفي رواية ابن إسحاق : « إن وحدثم هبار بن الأسود والرحل الذي سبق منه إلى رينب ماسبق فحرقوهما بالنار يعني صلى الله عليه وسلم رينب بنته ، وكان روحهما (أبو العاص بن الربيع) أسير يوم بدر ثم أطلقه صلى الله عليه وسلم ورحم إلى مكة وأخذ عليه عهداً أن ترك رينب تهاجر . فلما عاد أبو العاص إلى مكة سرح رينب بعد أن حفرها : فتبعها هبار بن الأسود ونافع بن عبد قيس فحسبا بعيرها فسهطت ومرصت من ذلك : فبعث صلى الله عليه وسلم سرية ، وقال : « إن وحدثوهما فاحملوهما بين حرمتين من حطب ثم أشعلوا فيهما النار . . . » ثم قال بعد ذلك إنى لأستحي من الله . لا نسعى لأحد أن يعذب بعداب الله ! » .

واستطرد الحافظ في التعليق ، وقال : وقد أسلم هبار هذا فلم تصبه السرية وأصابه الإسلام فهاجر وعاش إلى خلافة معاوية . أما رفيقه فلعله مات قبل أن يسام ؛ إذ لم يظهر له بعد ذكر .

فوجدت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : « أبو هريرة ؟ فقلت : نعم
يارسول الله ! قال : ماشأناك ؟ قات : كنت بين أظهرنا . . وذكر ما حصل .
فقال صلى الله عليه وسلم : ياأنا هريرة ! .

١ - اذهب ، فمن لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لاإله إلا الله
مستيقناً بها قلبه فاشره بالجنة .

وكان أول من لقيت عمر . فسألتى فقلت : نعتى رسول الله صلى الله
عليه وسلم : من لقيت يشهد أن لاإله إلا الله مستيقماً بها قلبه نشرته بالجنة .
فصرب عمر بيده بين تديي فحررت لاسقى ، فقال : ارحع ياأنا هريرة !
فرجعن إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأحেষت بكاء ، وركبى عمر ، فإذا
هو على إثرى . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مالك ياأنا هريرة ؟ قلت :
لقيت عمر فأحبرته بالدى نعتنى به فصرب بين تديي ضرمة حررت لاسقى ،
قال ارحع . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا عمر ! ما حلاك على ما فعلت ؟
قال : يارسول الله ! بأى أنت وأمى ! أنعت أنا هريرة من لقى يشهد أن
لاإله إلا الله مستيقناً بها قلبه نشره بالجنة ؟ . قال : نعم ! . قال : فلا نفعل ،
فأبى أخشى أن يتكل الناس عليها ، ثلهم يعملون ! ،

٢ - قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فخلهم ! «

وأيضاً في قصة زبيب بنت جحش وزيد بن حارثة ، عند ما بوحه زيد هدا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد تطليق زبيب لسبب ذكره له ،
١ - فقال الرسول الكريم لزيد : « أمسك عليك زوجك ،
وابق الله » .

٢ - معارسة الله على ذلك بقوله : [وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ ، وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ ، وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ...]^(١) ، فرجع عما أمر به ريداً مولاه .

وبود من باب الاستطراد أن نذكر كلمة تتعلق بهذا الحادث ، نظراً لما وقع فيه كثير من المفسرين من خطأ غير مقصود في تفسير هذه الآية الكريمة واتحده المبشرون وأعداء الاسلام مرتعاً حصيباً للتصيل ونشويه الرسول صلى الله عليه وسلم ، حتى يكون أمام القارئ لهذه الرسالة مايساعده على رد كيد الكائد لدينه .

روى ابن عباس وقتادة ومجاهد وغيرهم أن آية [وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ]^(٢)

[١] آية ٣٧ من سورة الأحزاب .

[٢] آية ٣٦ من نفس السورة السابقة .

نزلت في زينب بنت جحش لما خطبها صلى الله عليه وسلم لزيد مولاه فأبت ،
فأنزل الله الآية ، فقبلت طوعاً لأمر الله . قال الألوسى في تفسيره تعليقاً على
هذه الآية : وكان عرصه صلى الله عليه وسلم عليها زواج مولاه زيد إلهاماً من
الله ، أو وحياً ، ليكون بعد وسيلة لما تلاه من التشريع .

وحاصل قصة « زينب وزيد » على ما أخذ من شرح البخارى والتفسير :
أن المعروف أن الولد إما :

(ا) ولد نسب ،

(ب) أو ولد رضاع ،

(ح) أو ولد تبني مع معرفة الأب ،

(د) أو ولد نسي مع عدم معرفة الاب .

وكانت العرب حرت في عاداتها أن لا يتزوج الرجل زوج ولده ، أيّاً كان
الولد من هذه الأنواع الأربعة .

ولما جاء الاسلام أباح أن يتزوج الرجل امرأة متبناه ، المعروف الأب إذا
طلقها ، أو مات عنها . وكانوا يسمون هذا « دعى فلان أو متناه » .

ولما كانت عوائد العرب في مسائل النكاح حساسة جداً في هذه
الناحية وأراد الله إبطال عاداتهم هذه بتشريع مبيح على وجه ملزم للحل

لكل من تحدّثه نفسه بالتحلل منه ، أوحى إلى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يزوج بنت عمته زينب بنت جحش من مولاه زيد بن حارثة ، وأنه إذا طلقها زيد بعد ذلك يتزوجها صلى الله عليه وسلم ليبطل تلك العادة بنفسه هو حتى نكون قوة القدوة ماحقة لقوة العادة . ولهذا كانت العناية الإلهية بهذا الموضوع ظاهرة في هذه السورة - الأحزاب - من أولها . وقد نزلت في السنة الخامسة من الهجرة ، على ما قال ابن الأثير ، وحاء في أولها تمهيداً لهذا التشريع العظيم الذي حارب عادة نأصلت في هموس العرب من قرون طويلة قوله تعالى : [مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قُلُوبَيْنِ فِي حَوْفِهِ ، وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهَرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ ، وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ . ذَلِكَ كُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ ، وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ، ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ ، هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ . . الخ ^(١)] .

وقال تعالى في موضوع الحادث : [وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ، وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا . وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ

وَتَحْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ . فَلَمَّا فَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا
رَوَّحْنَا كَهْمًا لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا
فَصَوْا مِنْهُمْ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ
فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ حَلَلُوا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا
مَقْدُورًا . الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَحْشُرُونَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا
اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا . مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ
رَسُولَ اللَّهِ وَحَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ^(١)]

ويعلق الحافظ بن حجر على ذلك بقوله : أخرج ابن أبي حاتم هذه
القصة من طريق السدي ، فقال : إن هذه الآيات رأت في زيب بنت
جحش - وكانت أمها أميمة بنت عبد المطلب ، عمه رسول الله صلى الله عليه
وسلم ، وكان خطبها صلى الله عليه وسلم لمولاه زيد بن حارثة ، وقال لها :
«إني أريد أن أروحك زيد بن حارثة ، فإني فدرضيته لك» فأبت ، وقالت :
يا رسول الله ! لكني لا أرضاه لنفسى ، وأنا بنت عمك فلم أكن لأفعل -
وفي رواية أنها قالت : وأنا خير منه حسبًا - ووافقها أحوها عبد الله على
ذلك ، فبرل قوله تعالى : [وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مِوْمَنَةٍ .. الآية] .

[١] آيات : ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ من سورة الأحزاب .

ويقول ابن عباس ، وقتادة ، ومجاهد : لما نزلت الآية رَضِبْتُ هِيَ وأُحْوَاهَا ، فَأَنْكِحَهَا صلى الله عليه وسلم زَيْدًا ؟ وساق إليها عشرة دنانير وستين درهماً مهراً مع أَسْمَاءَ أُخْرَى من طعام ولباس .

ولما كان هذا الزواج غير طبعى لما علمت من مكاتها ومكابه ، ومن رعتها عنه وأبغتها وتواضعه هو وانكساره كان ما لا بد منه عادة . وقد جاء زيد إليه صلى الله عليه وسلم يوماً ، وقال يا رسول الله ! إن زينب قد اشتد على أسائها ، وأنا أريد أن أطلقها . فقال له صلى الله عليه وسلم : « أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ » ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ آيَاتِ الْأَحْزَابِ السَّاقِئَةِ^(١) معاسياً له

[١] والممسرون يسرحون هذه الآيات فيذكرون [وإذ تقول للذي أنعم الله عليه] بالاسلام ومعمله تحت رعايتك [وأنعمت عليه] بالعمق وبالترسة الحسنة [وتحفى في نفسك ما الله مبديه] الذى أحفاه صلى الله عليه وسلم على ما أخرجه الترمذى وغيره عن على بن الحسين : هو ما أوحى الله تعالى به إليه أن يتروحها بعد طلاق زيد لها ليتحقق التشريع المطلوب .

هذا ما ذهب إليه محققو المفسرين كالرهرى ، ونكر بن العلاء ، والقشيري ، وأبى بكر ابن العربى ، وغيرهم . وقالوا : ويكون حاصل العتاب . لم قلت : « أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ » ، وقد أمرت أن تتروحها بعد طلاقها وعدتها . وهذا المعنى هو المطابق للحاصل من سياق الآيات ، لأن الله تعالى يقول : [وتحفى في نفسك ما الله مبديه] والله لم يطهر شيئاً كان حافياً سوى رواجه صلى الله عليه وسلم بها ، وقال : [روحنا كها السكيا لكون على المؤمنين حرج في أرواج أديعائهم ...] فلو كان المصمر المحمة كما يقول المعترون والمجاهلون لما صحت الآية ، لأن الله لم يظهر هذه .

على قوله هذا ، ولم يجبه إلى ما أراد ، وهو أن لا يكون المباشر في إبطال
العادة المذكورة .

== ونقول نحن : والذى يظهر أنه صلى الله عليه وسلم قال ما قال من شدة حياته صلى الله
عليه وسلم وخوفه من قالة السوء يطلعها المنافقون والمرحفون في المدينة ، وقد كابوا كثيرين
يترصون مرتعا يحبون فيه ويفتخون من سموم الشكوك ما يطبقون . ورأى صلى الله عليه وسلم
أن في موقعه هذا أمنا على المسلمين من شر فتنة ، خصوصا من كان قرب عهد بالإسلام منهم .
والظاهر أنه صلى الله عليه وسلم كان يرحو من الله أن يعفيه من أن يكون هو القدوة
العملية في هذا المبدأ ، وأن هذا التشريع لا يتوقف بماده واشهاره على أن يكون هو نفسه
البادئ به ، وبذلك تتحقق المصلحة في نظره صلى الله عليه وسلم ويسد باب الفتنة . فهو
لا يعدو أن يكون احتياطاً منه صلى الله عليه وسلم وأظهره الله على أن غيره هو الصواب .
وقد قال الحافظ بن حجر : والحاصل أن الذى كان يحبه صلى الله عليه وسلم في نفسه
هو أنها ستكون روحته ، والذى كان يحمل على إحفاء ذلك خشية قول الناس : تروح
امرأة الله . وأراد الله إبطال هذه العادة بأمر لا أبلغ في الإبطال منه ، وهو وقوع ذلك
من إمام المسلمين ليكون أدعى لقبولهم .

ومثل هذا ما قاله الحافظ على السماء ، وعبارته : والظاهر أن الله تعالى لما أراد إسح
تحریم روحه المتناهی أوحى إليه صلى الله عليه وسلم أن يتروح ربنا إذا طلقها ريد ، فلم
يأمر صلى الله عليه وسلم بحافة طعن الأعداء فموت على ذلك .

أخبر مسلم والترمذي عن عائشة وأُسَ - قالوا لو كان محمد كاتماً شيئاً من الوحي لكنتم
هذه الآية : [وإذ تقول للذي أنعم الله عليه ... إلى قوله . وتحسى الناس والله أحق
أن تحشاه] .

ويستطرد المفسرون في الشرح ، فيقولون : [ما كان على النبي من حرج فيما فرض
الله له] معناه ماصح أن يكون عليه صيق ولا إثم فيما قسم الله له . قال الرابع : لأتحدث
من عبادك نصيباً مقروصاً أى مقطوعاً متميزاً عن غيره ، معلوماً ، وقال : كل موضع ورد =

لكن أكانت هناك فترة من الزمن بين أمره الذى عنون له بقوله :

== فى القرآن « فرص عليه » فى الإيجاب ، و « فرص له » فهو فى ألا يحطره على نفسه ومنه قال فتادة فى معنى الآية : أى فيما أحل الله له ، [سة الله فى الدين حلوا من قبل] . أى من قبلك من الأنبياء حيث لم يحرج حل شأنه عليهم فى الإقدام على ما أحل لهم ووسع عليهم . [الدين يباعون رسالات الله] صفة للدين حلوا من قبل من الرسل [ويحشونه ولا يحشون أحداً إلا الله] قال المفسرون . فى وصفهم بقصرهم الحشية على الله تعريض بما صدر عنه صلى الله عليه وسلم من الاحمرار عن لائمة الناس من حيث إن احوايه الرساين لم تكن سيرتهم التى تدعى الاقتداء بها ذلك ، وهذا كالأ كيد لما تقدم من التصريح فى قوله : [وتحشى الناس والله أحرى أن تحماه] .

[ما كان محمد أنا أحد من رجالكم] رد لمشأ حشيتة صلى الله عليه وسلم للناس المعان عليها ، وهو قولهم : أن محمداً تروح امرأة اسه ، فقد ردكون ريد اسه الذى تحرم روحه على أبلغ وحه ، والأبوة المفضة هما هى الأبوة الحقيقية السريعة ، سواء أكانت بالولادة أم بالرصاص ، أم تنى من بولد مثله لثله وهو مجهول النسب ، ومن المعلوم عندهم أن ريدا من رجالهم فلس له صلى الله عليه وسلم علمه أى أبوة من هذه . [ولكن رسول الله] صلى الله عليه وسلم ، لما كان من المشهور أن كل رسول أب لأمة فيما يرحم إلى وحب تعطيه وبوقيره ووحوب الشفقة والصيحة لهم عليه ، وكان أبى الأبوة على الإطلاق رعا تعدى إلى ذلك ، اسمدرك على ما يوههم من أبى الرسالة نائباتها تدسها على أن الأبوة المفضة شىء والمثنته شىء آخر . فحاصل الكلام اسمدرك بعد أبى الأبوة الحقيقية الشرعة بإثبات الأبوة المخارية اللعوية التى هى من شأن كل رسول ، وبذلك أبى يوههم الملازمة بين الأبوتين [وخاتم النبيين] حتى به مشيراً إلى كمال نصحه صلى الله عليه وسلم وشعفته عليهم ، وأن أبوته لأمته فوق أبوة كل رسول لأمته ، وذلك لأن الرسول الذى يشعر بأن بعده رسول رعا لا يبيع فى الشفقة عايتها ، وفى الصيحة نهايتها اسكالا على من يأتي بعده ، كالوالد الحقيقى الذى يعلم أن لولده من بعده من يقوم بشأنه مقامه . والله أعلم :

« أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ » وبين عتاب الله جل شأنه له الذى بدا فى قوله :
 [وَتُخِمِّي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُنْدِبُهُ وَتَحْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ]
 أم كان وقوع العتاب فور صدور هذا الأمر منه صلى الله عليه وسلم ؟ يتوقف
 تحديد ذلك على الثبت التاريخي .

ما بدا من اجتهاده فى صورة « الإِذْنِ » :

ثم هنا أيضاً رأى الرسول صلى الله عليه وسلم وبدا رأيته فى صورة
 « إِذْنٍ وَتُسْوِيعٍ » لشخص أو نفر من الناس ، ثم رل الوحي بتعديل رأيه :
 ١ — فى حين استأذن بعض المنافقين النبي صلى الله عليه وسلم التخلف
 عن غزوة تبوك فأذن لهم على ضعف أعذارهم — وتخلف من المؤمنين آخرون —
 فأُنزل الله فى الجميع آيات زلت أُنواء سمره صلى الله عليه وسلم فى نفس الغزاة ،
 وهى قوله تعالى : [أَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَا تَبْغُوكَ وَلَكِنْ
 تَعُدَّتْ عَلَيْهِمْ الشُّقَّةَ . . . الخ ^(١)] .

٢ — وعاتبه سبحانه وتعالى على إِدْبِهِ لهم بذلك ، إذ وجه إليه الخطاب

[١] آتيا ٤٢ . ٤٣ من سورة النوبة .

قوله : [عَمَّا اللَّهُ عَمَّكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَّبِعُنَّ لَكَ الدِّينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَادِبِينَ ^(١)] .

والمنار في تفسير هذه الآية الكريمة يقول : [عَمَّا اللَّهُ عَمَّكَ] العمو التجاوز عن الدب والتقصير ، وترك المواحدة عليه : [لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ] أى هلا استأنيت وتريزت بالإذن حتى يتبين لك الصادق في الاستئذان والكاذب الذى قرر التخلف أذنت أم لم تأذن ، فمتعلق [حتى] مفهوم من السياق . ثم يستطرد فيقول إن الزمخشري أساء الأدب في تفسير العمو ^(٢) . ويقول : إن المحرر الرارى في تفسيره حاء على الطرف الآخر محاولاً إثبات أب

لا ذنب ^(٣) **في نزال : وما كان للمخبر الرارى**
~~ومن من جلبها يرى أن الفخر الرارى ما كان مثله أن يهرب من إثمات~~
 ما أثبتته الله في كتابه في عدة مواضع لأنباء كثيرين - ببيتنا صلى الله عليه وسلم واحد منهم - تمسكاً باصطلاحات وعرف ^(٤) مستحدث في « الذنب » محالف لمداول اللغة فالدب في اللغة : كل عمل يستتبع ضرراً أو يعوت مصلحة ،

[١] آية ٤٣ من السورة السابقة ، ونزلت هي وغيرها في هذه السورة في شأن عروة بن مالك ، وهي « عزوة العسرة » المشهورة بشدة الحر وبعد الثقة ، وكانت في رجب سنة تسع من الهجرة

[٢] عبارة الزمخشري : [عَمَّا اللَّهُ عَمَّكَ] كناية عن الحمايه لأن العمو مرادف لها ، ومعناه : أخطأت ونسأت ما فعلت . [٣] لما يرى أن العمو إنما هو لمخالفة الأولى فقط .

[٤] هو مرادفة الدب للمعصية .

مأخوذ من « ذب الدابة » وليس مرادفا للمعصية ؛ بل أعم منها ، والاذن المعمور عنه هنا قد فوت المصلحة المنصوص عليها في الآية ، وهي علم جميع الناس بالصادق والكاذب من هؤلاء المتحلفين . وكان المطلوب ألا يأذن صلى الله عليه وسلم لهم حتى يفتضحوا على رؤوس الأشهاد ، وحتى لا يسهجوا ولو قليلا بأههم غرورا به صلى الله عليه وسلم وأضلوه بالكذب . وقد نسب الله للنبي صلى الله عليه وسلم الدب في موضع آخر من كتابه العزيز ، فقال : [وَأَسْتَمِعِرُ لِدَبِّكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ] .

وقد كان « الإذن » المعاتب عليه هنا احتهاذاً منه صلى الله عليه وسلم فيما لا نص فيه من الوحي وهو جائز على الأنبياء وليسوا معصومين من الخطأ فيه ، فقد كان الأولى منه صلى الله عليه وسلم أن يؤخر الإذن لهؤلاء المنافقين حتى يفتضحوا من أنفسهم .

١ — وفي حين آخر يروى مسلم في صحيحه عن عامر بن سراحيل الشعبي عن فاطمة بنت قيس — وكانت من المهاجرات الأول — قالت : نكحت ابن المغيرة ، وهو من حيارشمة قريش يومئذ ، فأصيب في أول الجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم : فلما تأيمت خطبى عبد الرحمن بن عوف ،

وحطبنى صلى الله عليه وسلم على مولاه أسامة بن زيد ، وكنت قد حدثت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من أحبني فليحب أسامة » ولما كلمني صلى الله عليه وسلم قات : أمرى بيدك فأسكنني من شئت . فقال : « انتقل إلى أم شريك » .

٢ — فقلت : سأفعل فقال : « لا تفعل ! إن أم شريك امرأة كثيرة الصيفان ، وإني أكره أن يسقط عنك حمارك ، أو يكشف الثوب عن ساقيك فيرى القوم منك بعض ماتكرهيه ، ولكن انتقل إلى ابن عمك عبد الله بن أم مكتوم . . . فانتقلت إليه . . الح (١)

وفي مقام ثالث يروى الإمام أحمد عن عثمان بن أبي العاص أن وفد تقيف قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأزلهم المسجد ليكون أرق لقلوبهم ، فاشتروا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا يحشروا (٢) ، ولا يعشروا (٣) ولا يحبوا (٤) ، ولا يستعمل عليهم غيرهم

[١] وفي روايه : « تأييت وكان نبي في مكان حال فحمت أن أعمد فيه (١) فرخص لي النبي صلى الله عليه وسلم في القلة إلى موضع آخر ، فأمرني أن أعتد في بيت أم شريك

(ب) ثم رجع صلى الله عليه وسلم فقال : « إن أم شريك يأتيها المهاجرون الأولون فانطلق إلى ابن أم مكتوم الأعمى فانك إذا وصعت حمارك لم يرك [٢] أي لا يبدون إلى المعاري . [٣] أي لا يؤخذ منهم عشر أموالهم [٤] أي لا يصلوا

١ — فقال صلى الله عليه وسلم : « لستم أن لا تحشروا ولا تعشروا ، ولا يستعمل عليكم غيركم ، ولا حير في دين لا ركوع فيه » .

ويروى أبو داود عن حابر أنه يقول : اشترطت ثقيف على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا صدقة عليها ، ولا جهاد ، وأنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول بعد ذلك :

٢ — « سيصدفون ، ويجاهدون » ^(١) .

وأولاً أذن لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بعدم إخراج الزكاة ، وعدم حروجهم إلى الجهاد . وهما أمران لا يقدم عليهما إلا النفس المؤمنة ، المطمئنة في إيمانها ، إذ المال والنفس في مقدمة ما يحرص عليه الإنسان ويدل حاهداً دون أن يفقد واحداً منهما ، ولا سنبل إلى التغلب على هذا الطمع النشوي إلا بالآيمان

[١] قال في الأسان : وأما حديث بشير بن الحصاصية حين ذكر له صلى الله عليه وسلم شرائع الإسلام فقال أما إنسان مهما فلا أطلقهما : الصدقة والجهاد فكسب صلى الله عليه وسلم يده ، وقال « لا صدقة ولا جهاد » ثم تدخل الحة ؟ « ولم يحتل صلى الله عليه وسلم لبشير ما احتمل لثقيف . وشبهه أن يكون إماماً لم يسمح صلى الله عليه وسلم لبشير لعلمه أنه يقلل إذا قل له ما قيل ، وثقيف كانت لا تقبله في الحال . وأيضاً هو واحد وهم جماعة ، فأراد صلى الله عليه وسلم أن يتألمهم ويدرجهم على الإسلام شيئاً فشيئاً

بأعز منهما، والله سبحانه وتعالى لدى المؤمن به حقاً أعز من النفس ، والمال ،
والولد ، والحياة الدنيا كلها .

ثم هو صلى الله عليه وسلم ثانياً يرقب منهم أن يؤدوا الزكاة ويخرجوا إلى
القتال بدافع الإيمان ، دون احتياج إلى نصيحة أخرى منه ، إن آمنوا وتغلغل
الإيمان في قلوبهم .^(١)

وهذا شأنه صلى الله عليه وسلم يتدرج القوم رويداً رويداً ، ويلين لهم
من جانبه ويتساهل في مطالبه تأليفاً لقلوبهم واستمالة لهم إلى التوحيد ، حتى إذا
وصل بهم إليه اطمأن إلى أنهم سيركبون الصعاب على النفس وعلى المألوف في
عاداتهم ويتحملون المشاق في كل جانب من جوانب حياتهم في سبيل نصرته
فما آمنوا به واستمروا بقائهم عليه .

ومما يدخل في هذا الباب للغاية نفسها ما يرويه أبو داود عن عبد الله بن
«صالحه عن أبيه ، قال : علمني رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان فيما علمني :
« وحافظ على الصلوات الخمس ! » . قال : قلت : إن هذه ساعات لي فيها
أشغال ، فمرني بأمر جامع إذا أنا فعلته أجزأ عني ، فقال :

(١) كما في رواية أبي داود عن جابر المتقدمة .

١ — « حافظ على العصرين ! » — وما كانت من لغتنا — فقلت : وما العصران ؟ فقال : « صلاة قبل طلوع الشمس ، وصلاة قبل غروبها » ^(١) .

ويروى أحمد في مسنده عن نصر بن عاصم عن رجل منهم أنه أتى النبي صلى الله عليه وسلم فأسلم على أنه لا يصلي إلا صلاتين ، فقبل ذلك منه . ويعلق الشيخ أبو إبراهيم أحمد الأيوبي الأنصاري الحنفى النقشبندى في شرحه « بذل الجهود في شرح سنن أبي داود » على رواية أحمد هذه بقوله :

فظهر بدا أنه أسقط عنه ثلاث صلوات . فكان من خصائصه صلى الله

[١] ويروى أبو داود أيضا ، ومسلم ، عن أبي بكر بن عمار بن ربيعة عن أبيه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من يلهج النار رحل صلى قبل طلوع الشمس وقبل غروبها » يعنى العصر والعصر .

ويعلق عليه الشيخ أبو إبراهيم أحمد الأيوبي الأنصاري الحنفى النقشبندى في شرحه : [بدل الجهود في شرح سنن أبي داود] بقوله : « لا يلهج النار » أى لا يدخلها أصلا للتعديب أو على وجه التأيد .

كما يعلق على رواية أبي داود عن عبد الله بن فضالة بقوله : قال [في درجات المراقبة] : قال ولي الدين : هذا الحديث مشكل سادى الرأى . إذ يوم إجراء صلاة العصرين لم يله شغل عن غيرها ، فقال البيهقى في تأويله — وأحس — : كأنه أراد — والله أعلم — : حافظ عليها بأول أوقاتها ، فاعتذر بأشغال مقتضية لتأخيرها عن أولها ، فأمره بالمحافظة على الصلاتين — العصر والفجر — بأول وقتها .

لكن تأويل البيهقى على هذا النحو يبعد أن يكون الحديث تصويرا للرأى احتجاده من الرسول صلى الله عليه وسلم يتصل بالتحفيز على الداخلين في الاسلام ، أملا في أن يعودوا فيما بعد إلى الوصع العام الذى التزمه كل المسلمين . والبيهقى بذلك مخالف حديث نصر بن عاصم عند أحمد ورأى « الفتح » و « الشوكانى » الآنى بعد في صفحة ٩٩ .

عليه وسلم أن يخص من شاء مما شاء من الأحكام ؛ ويسقط عن شاء ما شاء من الواجبات .

والظاهر أن هذا الرجل المبهم في حديث أحمد بن حنبل هو فضالة الذي في حديث أبي داود ، فإنه لیتی ، ونصر بن عاصم لیتی .

وقد ترجم الفتح الرباني لحديث مسند أحمد هذا بقوله : « فصل في ترغيب المسلمين في الاسلام وتأليف قلوبهم » ، وترحم له الشوكاني بقوله : « باب صحة الاسلام مع الشرط الفاسد » (١) .

[١] ويقرب من هذا في تيسيره صلى الله عليه وسلم الدين على الداخلين فيه باحتجاده مارواه أبو داود ، والبخاري ، وابن سعد ، وابن حبان والحاكم في صحيحهما عن أبي سعيد : أن امرأة صفوان بن المعطل (تشديد الطاء مفتوحة) جاءت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله ! إن زوجي يصربني إذا صليت ، ويفطرن إذا صمت ، ولا يصلي صلاة الفجر حتى تطلع الشمس . قال — وصفوان عنده صلى الله عليه وسلم — فسأله فقال : أما قولها : يصربني إذا صليت فإنها تقرأ سورتي [يريد آيات قصة الإفك من سورة النور ، لأنه هو الذي حل السيدة عائشة رضى الله عنها على حمله ولحق بالركب] وقد هبتها عنها ، وأما قولها : يفطرن إذا صمت فأنا رجل شاب لا أصر ، وأما قولها : لا أصلي حتى تطلع الشمس فإننا أهل بيت قد عرف لما ذلك فلا نستيقظ حتى تطلع الشمس .

قال الحافظ ابن حجر في تعليقه على هذه الرواية : إن رجال هذا الحديث من رجال الصحيح ، ولم يعلم أن أحدا نقل أنه صلى الله عليه وسلم رد على صفوان شيء . فلعن سكوتهم صلى الله عليه وسلم عنه كان من تمام برعيه في الاسلام وتيسيره عليه علما منه صلى الله عليه وسلم أنه سيحاطب فيما بعد على سببه وآدابه ، كما قال في وفد ثقيف : « إلهم سيفعلون » كما تقدم .

٢ — لكن قبوله صلى الله عليه وسلم من فضالة الاختصار على صلاة العصرين كان قبولاً مؤقتاً ، أملاً في أن يصبح فيما بعد كبقية المسلمين يؤدي من فروض الصلاة ما يؤديه غيره .

وكان ما يترقبه الرسول صلى الله عليه وسلم هنا من فصالة — بعد أن يتمكن الإيمان من قلبه — تعديلاً لما أذن له من إحزاء صلاة العصرين عن اليوم كله أول الأسر .

وكذا ما في رواية البخارى عن أم عطية من أنها قالت : بايعنا صلى الله عليه وسلم فقرأ علينا : « أن لا يسركن بالله شيئاً » ونهانا عن « النياحة » فقمت امرأة يدها ، فقالت : أسعدتني^(١) فلانة فأريد أن أحزيبها ،

١ — فما قال لها صلى الله عليه وسلم شيئاً^(٢) فاطلقت ،

٢ — ورجعت فبايعها .

وفي رواية النسائي . . . قال :

١ — فاذهبي وأسعديها ، فذهبت فسادها ،

[١] قال الحافظ : الإسعاد قيام المرأة مع الأخرى في الساحة تراسلها ، وهو خاص بهذا المعنى ، ولا يستعمل إلا في المساعدة على السكاء .

(٢) وفي رواية عاصم : . . . فقال صلى الله عليه وسلم : « إلا آل فلان » .

٢ - سم حثت فبايعت .

قيل في تعليل هذا : الترخيص كان خصوصية لأُم عطية ، وقيل : إن ذلك كان قبل تحريم النياحة .

ورد القرطبي هذا التحريج الأخير - ووافقه الحافظ ابن حجر - وقال : دعوى أن ذلك كان قبل تحريم النياحة فاسدة لمساق حديث أم عطية . فلو أنها فهمت التحريم لما استتنت . وأيضاً أم عطية نفسها صرحت بالمعنى عن النياحة .

ويرد - أيضاً - دعوى كون ذلك خصوصية لأُم عطية بثبوت مثل ذلك لغيرها : فقد أخرج ابن مردويه من حديث ابن عباس لما أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم على النساء فبايعهن أن لا يُشركنَ الله شيئاً ، قالت حولة بنت حكيم : يا رسول الله ! كان أبى وأخى ماتا في الجاهلية وأن فلانة أسعدنى وقد مات أحوها ... الحديث . وأخرج الترمذى أيضاً عن أم سلمة الأنصارية - وهى أسماء بنت يزيد - قالت : قلت يا رسول الله ! إن بنى فلان أسعدونى على عمى ولا بد من قضائهن ، فأبى . قالت : فراجعته مرارا فأذن لى ، ثم لم أتح بهد . وأخرج أحمد والطبرى كذلك - من طريق معصب بن نوح - قال : أدركت عجوزا لنا كانت فيمن بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

قالت : فأخذ علينا ... ولا ينحن ، فقالت : عجوز : يا نبي الله ! إن ناساً كانوا أسعدونا على مصائب أصابتنا ، وأهمهم قد أصابتهم مصيبة ، فأنا أريد أن أسعدهم ، قال : « فاذهي فكافئهم » . قالت : فانطلقت فكافأتهن ، ثم أتت فبايعته .

ولم يبق بعد رد القرطبي لما سبق من تحريج الحديث على أن الإذن بالنيابة كان قبل تحريمها - إلا أن يكون الحديث معبراً عن اجتهاد منه صلى الله عليه وسلم بنية تيسير الإسلام على من دخل جديداً فيه معتمداً على أنه سيكون في سلك بقية المؤمنين بعد أن يتمكن نور الإسلام من قلبه .

فقد أذن صلى الله عليه وسلم هنا بالنيابة - وهي أمر غير مرغوب فيه - وإذنه بذلك مؤقت ، والإذن المؤقت ينطوي على معنى العدول عن استمراره واعتباره قاعدة عامة .

ما بداه اجتهاده في صورة « الدعاء » :

وهذه صورة أخرى من الصور الكثيرة التي بدا فيها اجتهاده صلى الله عليه وسلم ، وتتصل اتصالاً وثيقاً بمعنى العبادة^(١) ، وهي صورة الدعاء على بعض

(١) فقد ورد : « الدعاء مخ العبادة » .

الناس من كافرين ومؤمنين لما وقع منهم من أحداث أثارَت دخيلة نفسه عليه السلام

١ — فالبخارى — ويوافقه في الرواية أحمد والترمذى والنسائى — يروى عن ابن عمر أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد لما جرح وكسرت رماعيته^(١) ورأى تمثيل الكفار بعمه حمزة وبالمسلمين : « اللهم العن أبا سفيان ، اللهم العن الحارث بن هشام ، اللهم العن سهيل بن عمرو ، اللهم العن صفوان بن أمية » . فتصرع إلى الله سبحانه وتعالى بأن يجزيهم على فعلتهم هذه شر أنواع الجزاء وهو أن يلعنهم ويسجل عليهم سخطه .

٢ — وفي إثر ذلك نزلت هذه الآية : « لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ^(٢) » .

فرسول الله صلى الله عليه وسلم عندما دعا عليهم وطلب من الله أن يلعنهم كان ذلك عن اجتهاد منه . لكن لم يقره الله سبحانه وتعالى على اجتهاده إذ نهاه عما طلب بقوله الكريم في هذه الآية السابقة ، على رأى من يرى من

[١] الرباعية بفتح الراء هى التى بين الثنية والالف . وأراد بكسرها أنها ذهبت منها ولقة ولم تقطع من أصلها . والرباعية التى كسرت منه صلى الله عليه وسلم هى السفلى اليمى .

[٢] آية ١٢٧ من سورة آل عمران .

المفسرين أنها نزلت في شأن أحد . ومن هؤلاء الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده .
ويعمل ما اتجه إليه بقوله فيما نقل عنه من تفسير للقرآن الكريم : ما قبل
الآية وما بعدها^(١) في قصة أحد ، فيجب أن يكون الكلام كله في أحد صوباً
للقرآن عن تكلف يزه عن مثله كلام الله .

[١] الآية التي قبلها : « ليقطع طرفاً من الذين كفروا أو يكتنهم فيقتلوا خائئاً » ،
والتي بعدها قوله تعالى : « ولله ما في السموات وما في الأرض يعقر لمن يشاء ويعذب من
يشاء والله عفو رحيم » .

ونعص آخر من المفسرين يرى في سبب نزول الآية أنها كانت في دعائه صلى الله عليه
وسلم على أصحاب بدر معوية — وكانت بعد أربعة أشهر من أحد — ودعا عندها على رعل
ودكوان وعصية . . . الخ .

ومعنى قوله تعالى « ليقطع » ذهب بعض المفسرين إلى أنه متعلق بقوله : « ولقد نصرم
الله بدر » ، واحتار بعضهم أنه متعلق بمفهوم من المقام متعلق بواقعة أحد المقصودة
بالكلام بالذات لأن ذكر بدر إنما جاء استطراداً . ويكون المعنى : فعل الله ما فعل ليقطع
طرفاً أى يهلكهم .

ومعنى قوله حل شأنه « أو يكتنهم » — كما يقول اليمصاوى — يحربهم . والسكت شدة
الغيظ أو وهن يقع في القلب . وقوله « ليس لك من الأمر شيء » اعتراض بين المعطوفات .
وقوله « أو يتوب عليهم » معطوف على يكتنهم . ومعنى « أو يعذبهم » هو بما أعد لهم
في الآخرة من عذاب أليم ، والمراد تعذيب هذا الفريق هو التعذيب الشديد جداً المخصوص
بأشد الكفرة كفراً ، ولا فطلق التعذيب الأخرى محقق في الفريقين الأولين . و « أو »
في الآيات للتشويق لا للتديد . والمعنى كله : أنه يقطع طرف طائفة ، ويكت طائفة أخرى ،
ويتوب على طائفة ، ويعذب أخرى عذاباً أكبر .

ومعنى « ليس لك من الأمر شيء » : ليس إليك يا محمد من أمر خلقي إلا أن تنفذ فيهم
أمرى ، وتنهى فيهم إلى طاعتي ، إنما أمرهم بعد ذلك إلى والقضاء فيهم بيدي دون عيرى ،
أقصى فيهم وأحكم بالذي أشاء حتى بالتوبة على من كفر بي . . . الخ .

ثم هذا مثل آخر لهذه الصورة من صور اجتهاده صلى الله عليه وسلم ،
وهي دعاؤه على بعض المؤمنين :

١ — مسلم يروى في صحيحه عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : دخل
على رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلان فكلاماه بشيء لا أدري ما هو
فأغصباه فلعنهما وسبهما — وفي رواية فخلوا به فسبهما ولعنهما وأحرحهما — فلما
حرجا قلت يا رسول الله ما أصابا من الخير شيئاً ؟ قال : وما ذاك ؟ قلت :
لعنتهما وسبمتهما ، قال : أو ما علمت ما شارطت رضى عليه ؟ ،

٢ — قلت : اللهم إنما أنا بشر ، فأى المسلمين لعنته أو سببته فاحمله
له زكاة وأحرا .

فالرسول عليه السلام كما يؤخذ من هذه الرواية قد سلك مسلك الإنسان
العادى يغضب ويلعن لأمر يشير نفسه ، ثم يعود فيرجع ويطلب من ربه
— شفقة ورحمة — أن يجعل الدعاء على من دعا عليه من المسلمين دعاء له بأن
يكون زكاة وأجراً له . وفي هذا يروى مسلم عن أنى هريرة أنه قال : سمعت
رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « اللهم إنما محمد بشر ، يغضب كما يغضب
البشر وإنى قد اتخذت عندك عهداً لن تخلفنيه : فأيا مؤمن آذيته أو سببته
فاجعلها له كفارة وقربة تقرب به بها إليك يوم القيامة » .

ونحن في إسنادنا الاجتهاد إلى الرسول صلى الله عليه وسلم لا نبغى أكثر من أن نقرر أنه صلى الله عليه وسلم بشري يحوز عليه ما يحوز على البشر، فيما عدا ما خصه الله به من رسالة فهو فيها معصوم وقوله فيها قول الحق جل جلاله^(١).

ما برأ من اجتهاده في صورة تفضيل الترك على الفعل :

وهذا نوع آخر غير ما تقدم من الأمثلة التي تدل على اجتهاده صلى الله عليه وسلم وبالتالى على أنه بشري إلا فيما عصمه الله فيه في دائرة الرسالة والتبليغ، وهو اجتهاده عليه السلام في صورة تفضيل الترك على الفعل . فيروى عنه صلى الله عليه وسلم في « تلقيح النخل » أنه نصح لهم بعدم تلقيحه اجتهدا منه

[١] ويشبه هذه الصورة الأخيرة ما يرويه مسلم أيضاً عن أنس بن مالك ، قال : كانت عند أم سليم يتيمة . رأى صلى الله عليه وسلم اليتيمة فقال : أنت هيه - أنت هيه - أنت هيه بعد الهجرة وفتح الياء استفهام على معنى التعجب وكأنه (ص) رآها قبل ذلك صغيرة ثم عابت عنه مدة فرآها قد كبرت فتعجب من سرعة ذلك . ودعاؤه عليها من الدعاء الحارثي على اللسان من غير قصد - ؟ لقد كبرت ! لا كبر سمك . فرجعت اليتيمة إلى أم سليم تبكي فقالت أم سليم : مالك يا بنية ؟ قالت الحارثية : دعا على صلى الله عليه وسلم ألا يكبر سبي أبداً . فخرحت أم سليم مستعجلة تلوث - تلوثه أى تديره على رأسها - حمارها حتى لقيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال لها صلى الله عليه وسلم : مالك يا أم سليم ؟ فقالت ياني الله أدعوت على يتيمة ؟ قال : وما ذاك يا أم سليم ؟ قالت : رعب أنك دعوت ألا يكبر سبي . قال : فصحك صلى الله عليه وسلم ثم قال : يا أم سليم ! أما تعلمين أني اشتططت على ربي فقلت لأمي أنا بشر أرسى كما يرسى البشر وأعصب كما يعصب البشر ، فأما أحد دعوت عليه من أمي ندعوة ليس لها نأهل أن يجعلها له طهوراً وركاة وقربة تقربه بها يوم القيامة . قال القرطبي : والحديث يدل على أن الصغار والسكران كان معلوماً عندهم قبول دعائه (ص) ولذا قرعت أم سلم من دعائه على جاريتها . وبكت اليتيمة لما سمعت دعاءه عليها .

بأن في ذلك مصلحته . ولما نفصت غلته فيما بعد سبب عدم تلقيحه وذكروا
له ذلك قال : « إنا أنا بشر إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به وإذا
أمرتكم بشيء من رأيي فإنما أنا بشر » . يرويه مسلم في صحيحه ^(١) عن رابع
بن خديج . ونص الرواية : قال قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة وهم
يأبرون النخل فقال : ما تصنعون ؟ قالوا : كما يصنعه ! قال : لعكم
لو لم تعملوا كان حيرا ، فتركوه فنهضت قال فذكروا ذلك له صلى الله عليه وسلم
فقال : إنا أنا بشر . . الخ .

وفي رواية أحمد : ما كان من أمر دينكم فإلى ما كان من أمر دنياكم
فأتم أعلم به .

وفي رواية أخرى لمسلم عن موسى بن طلحة عن أبيه قال : سررت مع
رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوم على رؤس النخل ، فقال : ما يصنع هؤلاء ؟
فقالوا : يلحقوه يحملون الذكر في الأنثى فيتلحق ، فقال صلى الله عليه وسلم :
ما أظن بغنى ذلك شيئا ، قال : فأخبروا بذلك فتركوه ، فأخبر بذلك فقال
صلى الله عليه وسلم : « إن كان ينفعهم ذلك فليصنعوه ، فإنما ظننت ظنا

[١] في باب : وجوب امتثال ما قاله صلى الله عليه وسلم شرعاً ، دون ما ذكره من معاش
الدنيا على سبيل الرأي .

ولا نؤاخذوني بالظن ، ولكن إذا حدثكم عن الله شيئاً فخذوا به فإني لن أكذب على الله عز وجل . » .

وفي رواية ثالثة له أيضاً عن عائشة وأنس أنه صلى الله عليه وسلم مرّ بقوم يلقحون الذحل فقال : لولم تفعلوا لصلح ، فخرج شيصاً ، فمربهم فقال : ما لنخلكم ؟ قالوا : قلت كذا وكذا . قال : أنتم أعلم بأمور دنياكم .

وأياً كانت صيغة الرواية عنه صلى الله عليه وسلم في ذلك فقد رأى رأياً في صورة ما — هي هنا صورة تفصيل الترك على الفعل — تبين له فيما بعد خلافه بحكم ما صار إليه الأمر في الواقع . ولما كان الذي رآه عليه السلام هنا لم يحقق مصلحة لقومه بل جلب مضرة لهم اعتذر من ذلك واستثنى لهم مبدأً عاماً في اتباع ما يقوله وهو . . إذا أمرتكم بشيء من دينكم — وفي رواية إذا حدثكم عن الله شيئاً — فخذوا به ، وإذا أمرتكم بشيء من رأيي فإنه أنا بشر .

وصيغة هذا الحديث واضحة في الهدف الذي هدفنا إليه من هذا الكتاب ، وهو تعدد جواب الرسول عليه السلام ، وكان له جانب بشري يجوز عليه من أجله ما يجوز على البشر ، وجانب آخر يمتاز به عن البشر وهو

ما يتصل فيه بر به جلّت عظمته من حيث إله رسوله وإله كلف بتبليغ رسالته إلى الناس كافة .

والنوروى يعلق على هذا الحديث بقوله : قال العلماء : رأيه صلى الله عليه وسلم في أمور المعاش كغيره فلا يمتنع وقوع مثل هذا - وقوع ما يخالف رأيه كخروج النخل تيمصا هما - ولا نقص في ذلك . وسببه تعلق همه بالآخرة ومعارفها .

وقال الأبي قال القرطبي : قال ذلك صلى الله عليه وسلم لأنه لم يكن عنده علم باستمرار العادة ، لأنه صلى الله عليه وسلم لم يكن ممن عانى الملاحاة خفيت عليه تلك الحالة ، وتمسك صلى الله عليه وسلم بالقاعدة الكلية وأنه لا يؤثر ولا يغي إلا الله تعالى . والأبى يعلق على اعتذار القرطبي عن الرسول عليه السلام في ذلك بقوله : يرد أن يقال : اجتماع الذكر والأنثى سبب واضح في حصول النتيجة كما نص عليه القرآن فكيف يلغى اعتبار ما نص على اعتباره القرآن ، ثم قال : والجواب أن سببها أمر عادى مشاهد في الحيوان ، وأما في الأشجار فمستندة التجربة .

وما ينقل عن النوروى في الشرح يتفق مع ما يذكره ابن خلدون حيث يقول : إله صلى الله عليه وسلم يقول في أمور المعاش من طب وزراعة بما يقول

به الناس حوله ناتحاً عن تحارب وعادة - وهذا فيما لا وحى فيه طبعاً .
وتتجلى صحة هذا الرأى بالمقارنة بين ما غاب عنه صلى الله عليه وسلم من
شئون النخل التى تعتبر بدهية لدى أهل المدينة لأنه صلى الله عليه وسلم نشأ
فى بلد غير ذى زرع - مكة - ولم يكن لأهلها علم بحال النخيل وما يصلحه
وما يفسده من جهة و بين تمام خبرته صلى الله عليه وسلم ببعض نبات جبال
مكة وصحاريها مما يعلمه رعاة الغنم من جهة أخرى . فقد أخرج البخارى فى
صحيحه عن جابر بن عبد الله قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم نجى
الكباب فقال صلى الله عليه وسلم عليكم بالأسود منه فإنه أطيبه ، قالوا :
أكنت ترعى الغنم ؟ قال : وهل من نبى إلا وقد رعاها (١) .

ومثال آخر لما بدا من اجتهاده صلى الله عليه وسلم فى صورة تفضيل الترك

[١] قال الحافظ ابن حجر فى شرحه لهذا الحديث : السمكات بفتح الكاف والماء آخره
مثلثة هو الصبح من ثمر الأراك ليس له عجم ، وإنما قال له أصحابه : أ كنت ترعى الغنم ؟
لأن فى قوله لهم : عليكم بالأسود منه دلالة على تمييزه بين أنواعه . والنزى يميز بين أنواع
ثمر الأراك عالمياً من يلازم رعى الغنم على ما ألدوه ، لأن راعيها كثيراً ما يحوس حلال
الأشجار لانتعاء المرعى منها ، والمتردد على الشيء يكون حبيراً به .
ثم قال الحافظ مستطرداً : والحكمة فى رعى الأبداء الغنم ليأخذوا أنفسهم بالنواصع
وتعتاد قلوبهم الحلوة ويتروقا من سياستها إلى سياسة الأمم وقيادهم برفق إلى ما فيه
صلاحهم .

على الفعل ما يرويه البحارى ومسلم عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يشرب عسلا عند زينب بنت جحش ويمكث عندها ، فتواطأت أنا وحفصة عن أيتهما دخل عليهما فلتقل له أكلت مغافير^(١) ؟ إلى أحد منك ربح مغافير ! . قال : لا ، ولكى كنت أشرب عسلا عند زينب بنت جحش فلن أعود له ، وقد حملت ، فلا تخبرى بذلك أحدا ! فبرات : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَرْوَاحِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ . قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ . وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ نَعَصَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَأَنِي الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ^(٢) » .

١ — فهو عليه السلام رأى أن لا يعود لشرب العسل ظنا منه أن رائحته كريهة غير مقبولة .

[١] المغافير بالعين المعجمة والماء بعدها ياء ثم راء جمع معفور ، صمغ حلوه رائحة كريهة وكان صلى الله عليه وسلم يكره الرائحة الكريهة . قال فى النهاية : المغافير شىء يصمغه شجر العرفط ، حلوه رائحة كريهة مسكرة . والعرفط شجر الطالع وله صمغ كريبه الرائحة فإذا أكلته الجمل حصل فى عسلها من ريحه .

[٢] معنى قوله تعالى فى الآية الكريمة « لم تحرم » لم تمتنع ، و « ما أحل الله » العسل والاستفهام ليس على حقيقته ، بل هو عتاب على الامتناع عن الحلال مع اعتقاد حله مرصاة لبعض أزواجه ، لا أنه صلى الله عليه وسلم اعتقد تحريم الحلال — حاشاه صلى الله عليه وسلم — .

٢ — لكن الله جل شأنه لم يقره على ما رأى بل عاتبه عليه بقول سبحانه : « لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ لَكَ ؟ » .

ما بدرا من اجتهاده في صورة النهي العام

يروى البخارى عن ابن عباس رضى الله عنه أن النبی صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله حرم مكة لا يعصده شجرها »^(١) . فقال العباس يارسول الله ! إلا الإذخر لصناعتنا وقبورنا ، فقال صلى الله عليه وسلم : « إلا الإذخر »^(٢) . وفي رواية أخرى : وهذا بلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض وهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ، وأنه لا يحل فيه القتال لأحد قبلى ، ولم يحل لى إلا ساعة من نهار ، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ، لا يعصده شوكه . . . الخ . . . » ، فقال العباس : يارسول الله ! إلا الإذخر فإنه لقيتهم وليوتهم ، قال صلى الله عليه وسلم : « إلا الإذخر » . وفي رواية : قال العباس : « يارسول الله ! : إن أهل مكة لا صبر لهم على الإذخر ، لقيتهم وبيوتهم .

[١] أى لا يقطع .

[٢] الإذخر بنت معروف عند أهل مكة طيب الرائحة له أصل مدق وقصباه دقاق ، ينبت في السهل والحر ، وأهل مكة يستقون به البيوت بين الحسب ويسددون به الحلال بين اللبثات في القبور ويستعملون في الوقود ، ولهذا قال العباس : فإنه لقيتهم وهو الحداد أو كل دى ساعة يعالجها نفسه . ويكثر أن يكون ذلك بواسطة البار

والقراي - في تنقيح الفصول - يعلق على هذا الحديث بقوله : فهذا يدل على أنه صلى الله عليه وسلم لما بين له العباس الحاجة إلى الإذخر أباحه بالاجتهاد المصلحة .

والحافظ يقول : إن هذا يدل على أن الاستثناء في كلام العباس لم يرد به أن يكون هو المستثنى ، وإنما أراد به أن يلحق النى الاستثناء .

ويقول الطبرى : ساع للعباس أن يستثنى بعد أن علم أن الحرم هو الله لأنه احتمل عنده أن يكون المراد بتحريم مكة تحريم القتال دون ما ذكر من تحريم عضد الشجر فإنه من تحريم الرسول باجتهاده فساع له أن يسأله استثناء « الإذخر » .

١ - فالرسول عليه السلام حرم باجتهاده في صيغة العموم قطع « الإذخر » .

٢ - ثم عدل عن تحريمه إلى إباحته عندما تكشف له الحاجة إليه . وهذا ما بفيده شرح الطبرى والقراي .

ما برأ منه اجتهاده في صورة الاستغفار لبعض المنافقين

قال ابن كثير: قال قتادة: أرسل عبد الله بن أبي (١) إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مريض، فلما دخل عليه قال له صلى الله عليه وسلم: «أهلكك حب يهود». قال: يا رسول الله! إنما أرسلت إليك لتستغفر لي، ولم أرسل إليك لتؤبني، ثم سأله عبد الله أن يعطيه فيصمه ليكن فيه (إذا مات) فأعطاه إياه.

قال ابن كثير: فإذا صحت هذه الرواية دلت على أنه صلى الله عليه وسلم استغفر له وهو حي، فأنزل الله - وعبد الله حي أيضاً - : «أَسْتَغْفِرُ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ» (٢).

قال في تفسير المنار تعليقاً على ذلك: والظاهر أنه كان صلى الله عليه وسلم يستغفر لهم رجاء أن يهديهم الله تعالى فيتوب عليهم ويغفر لهم كما كان يدعو المشركين ويقول: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون».

(١) كان من كبار المنافقين الذين أظهروا الإيمان وأطوا الكفر، وكانت وفاته سنة ٩ هـ [٢] آية ٨٠ من سورة التوبة.

ويروى البخارى - ومسلم وأحمد والترمذى والنسائى - عن ابن عمر أنه قال : لما توفى عبد الله بن أبى جاء ابنه عبد الله بن عبد الله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه فأعطاه ، ثم سأله أن يصلى عليه ، فقام رسول الله ليصلى عليه ، فقام عمر بن الخطاب فأخذ بثوب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله تصلى عليه وقد نهاك ربك أن تصلى عليه^(١) ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « إنما خيرنى الله فقال : أَسْتَغْفِرُ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ، وسأزيد على السبعين » ، قال : إنه مات منافق ، قال فصلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فأُنزل الله عز وجل : « وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ

[١] الذى يظهر من سياق القصة أن عمر رضى الله عنه فهم النبى من قوله تعالى : « فلن يعمر الله لهم » أو منها ومن التسوية بين الاستغفار وعدمه . قال الكرمانى : لأن الشئ الذى يستوى حصوله وعدمه يكون طائفة عنثاً ، والعنث محظور على العقلاء فصلا على الأنبياء . وقال الألوسى : ولم يزل بين « استغفر لهم أو لا تستغفر لهم » وبين « ولا تصل على أحد منهم مات أبداً » شئ ، وما فهمه عمر من النبى فأخود من الآية الأولى ، أى لأنه لو كان هناك ما يفيد النبى غيرها لذكره عمر بعد المعارضة ، وكذا لما خفى عليه صلى الله عليه وسلم . ونص عبارة الألوسى عند قوله تعالى : « ولا تصل على أحد منهم » :

وطاهر هدين الحر أن أنه لم ينزل بين « استغفر لهم أو لا تستغفر لهم » وقوله تعالى : « ولا تصل على أحد منهم مات أبداً » شئ . يرفع عمر رضى الله عنه وإلا لذكره . والطاهران مراده بالنبى فى الجزء الأول ما فهمه من الآية الأولى ، لا ما يفهم كما قيل من قوله تعالى : « ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين » لعدم مطابقة الجواب حينئذ . ثم قالوا : وإعما نهى صلى الله عليه وسلم عن الصلاة ولم يبه عن إعطاء القميص مطعة الإخلال بالكرام.

أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ^(١) .

والبخاري يروي أيضاً من طريق آخر عن ابن عباس قال : سمعت عمر ابن الخطاب رضى الله عنه يقول : لما توفي عبد الله بن أبى دعى صلى الله عليه وسلم للصلاة عليه فقام إليه ، فلما وقف عليه يريد الصلاة تحولت حتى قمت في صدره ، فقلت : يا رسول الله ! أتصلي على عدو الله عبد الله بن أبى النخائل يوم كذا : كذا ، وكذا^(٢) ؟ أعدد عليه قوله ! فنسب صلى الله عليه وسلم وقال : « آخر عني يا عمر » ، فلما أكثرت عليه قال : « إني حيرت فاحترت » ... إلى أن قال : فصلى عليه صلى الله عليه وسلم ثم انصرف ، فلم يمكث إلا يسيراً حتى نزلت الآية : « وَلَا تَصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ » .

قال ابن المير : وإنما قال ذلك عمر حرصاً على النهي صلى الله عليه وسلم ومشورة لا إلزاماً ، وله عهدٌ بذلك .

[١] آية ٨٤ من سورة التوبة .

[٢] أى النخائل في غزوة بني المصطلق - وكانت سنة ست - : « لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعرج منها الأذل » ، والنخائل : « لا تمفقوا على من عند رسول الله حتى ينفصوا » . وروى قتادة عند تفسير قوله تعالى : « محفلون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر ... » - آية ٧٤ من سورة التوبة - قال : رأت في عند الله بن أبى ، وذلك أنه اقتتل رحلان حهبي (مكي) وأنصاري ، فعلا الحهبي على الأنصاري . فقال عند الله بن أبى للأنصار : ألا تنصرون أحاكم ؟ والله ما مثلنا ومثل محمد إلا كما قال النخائل : سمن كلبك يأكلك - وسيأتي تفصيل هذه القصة في ص ١٢٢ من هذا الكتاب .

وقال الحافظ ابن حجر : واستشكل الداودى تبسمه صلى الله عليه وسلم عند الجنائز ، وأحيب بأنه عر عن طلاقة وجهه بالتبسم ، وإما فعل ذلك تأنيساً لعمر ، وتطيباً لقلمه كالمعتذر عن ترك قبول كلامه ومشورته :

- ١ — فالرسول عليه السلام عندما طلب منه عبد الله بن أبى - وهو رأس المنافقين كما يقولون - أن يستغفر له استغفر له اجتهداً منه ودعا ربه العفو عنه ،
- ٢ — لكن الله سبحانه وتعالى لم يقر رأيه وبالتالي لم يستجب لدعائه، كما جاء فى كتابه الكريم : « أَسْتَغْفِرُ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ » .

فلو كان استغفار الرسول عليه السلام لعبد الله بن أبى عن وحي ولم يكن عن رأى اجتهدى منه لما بنى سبحانه وتعالى - هنا فى هذه الآية الكريمة - قبوله وأكد ذلك بعدم وقوعه فيما بعد أيضاً .

ومن اطلع على هذه الروايات التى دونت فى كل تواليف الحديث (وفى مقدمتها البخارى ومسلم) يعرف أنه صلى الله عليه وسلم اجتهد فاستغفر لبعض المنافقين - واجتهد فصلى عليه - دعائه الله على ذلك ، بل ربما يسترسل فى

تخريجها فيرى أنه صلى الله عليه وسلم اجتهد فوق ذلك في فهم القرآن وأن فهم غيره كان هو الصواب .

ولما كان هذا أمراً خطيراً رأينا - من باب الاستطراد - أن نورد هنا كل ما اتصل بهذا الموضوع من القرآن والسنة ونعرضه في صعيد واحد علنا نصل منه إلى شيء تطمئن إليه النفس فنقول وبالله التوفيق :

قد يعكر على ما يفهم من دعائه صلى الله عليه وسلم وصلاته على المنافقين أمور :

١ - منها أن البخاري ومسلم وأحمد وابن أبي شيبة والنسائي وابن جرير وابن المنذر والبيهقي في الدلائل وآخرون ، يروون عن سعيد بن المسيب عن أبيه قال : لما حضرت أبا طالب الوفاة دخل عليه صلى الله عليه وسلم وعنده أنوحيل وعبد الله بن أبي أمية ، فقال صلى الله عليه وسلم : أي عم ! ، قل : لا إله إلا الله أحاج لك بها عند الله ، فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية : يا أبا طالب ! ترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فجعل صلى الله عليه وسلم يعرضها عليه ، وأبو جهل وعبد الله يعاودانه بتلك المقالة ، فقال أبو طالب آخر ما كلمهم : هو على ملة عبد المطلب ، وأبي أن يقول لا إله إلا الله ، فقال صلى الله عليه وسلم : « لأستغفرن لك ما لم أنه عنك » فنزلت الآية الكريمة : « مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ

وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُنْكَرِ كَيْفَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ
مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ . وَمَا كَانَ أَسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا
عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَرََّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ
لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ^(١) .

وروى الطبري - في سبب نزول الآية - عن عمرو بن دينار قال : قال
النبي صلى الله عليه وسلم : « استغفر إبراهيم لأبيه وهو مشرك فلا أزال أستغفر
لأبي طالب حتى ييهاى عنه ربي » ، فقال أصحابه : لنستغفرن لأبائنا كما
استغفر نبينا لعمه ، فنزلت الآية : « مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا ... » .

وهذا الحديث الصحيح يدل أولاً على أنه صلى الله عليه وسلم سبق له أن
احتج واستغفر لبعض الكفار ، وهما الله ، إذ موت أبي طالب كان بمكة قبل
الهجرة بثلاث سنين وموت عمه الله بن أبي ابن سلول كان في ذي القعدة
سنة تسع .

٢ — ومنها أنه نزل عليه صلى الله عليه وسلم في سورة الممتحنة - سنة
ست - ما يوجب على المؤمن التبرأ من عدو الله ، فضلاً عن الاستغفار له ، وضرب
لهم مثلاً بأبهم إبراهيم عليه السلام والذين آمنوا معه وأنهم قدوتهم في كل شيء

[١] آيتا ١١٣ ، ١١٤ من سورة التوبة .

إلا في وعده أباه بالاستغفار ، أى فلا تقتصدوا به في ذلك فقال تعالى :
 « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تَلْقَوْنَ إِلَيْهِمْ
 بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنْ أَلْحَقِ ... إِلَى قَوْلِهِ : قَدْ كَانَ لَكُمْ
 أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا الْقَوْمِ هُمْ إِنَّا نُرَآءُ مِنْكُمْ
 وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ
 وَالْبَعْصَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَا اسْتَعْمِرَنَّا
 لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ » .

٣ — ومنها أنه نزل عليه صلى الله عليه وسلم في سورة النساء — سنة ست — :
 « إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ
 يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ^(١) » . وقال : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ
 يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ
 صَلَاةً لَا يَعِيدُ ^(٢) » .

٤ — ومنها أنه نزل عليه صلى الله عليه وسلم قبل ذلك في عبد الله بن أبي
 ابن سلول هذا ومن معه سورة « المنافقين » — وكان نزولها بعد غزوة بني المصطلق
 التي كانت في شعبان سنة ست — وفي هذه السورة ما يفيد أن الله طبع على قلب

[١] آية ٤٨ من سورة النساء .

[٢] آية ١١٦ من سورة الساقة .

ابن أبى ، وأنه لا يؤمن ولا ينفع له استغفار . قال تعالى : « إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ، اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ حُنَّةً فَأَصْدَوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لِيُفْسِدُوا سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا^(١) فَطَمَعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ... إِلَى أَنْ قَالَ : هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرُهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَئِنِّي يُوْفِّكُونَ ، وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْمَعُوا لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّا رُءُوسَهُمْ وَرَأَتْهُمُ بِصُدُونٍ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ، سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْمَعْتَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْمَعْ لَهُمْ لَنْ يَغْمِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَعُوا وَلِلَّهِ حَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ . يَقُولُونَ لَنْ نَرَحَعَ إِلَى أَلْمَدِينَةِ لَيْخَرْ جَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلُّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ » .

والمبخارى فى سبب نزول هذه السورة يروى عدة أحاديث وزعمها على سبعة أبواب ، وكلها تدور حول موقف قبيح مخزٍ لعبد الله بن أبى ابن سلول :

[١] آمنوا أى نطقوا بكلمة الشهادة كسائر من دخل فى الإسلام ، ثم كفروا طهر كفرهم وتبين من أقوالهم وأفعالهم أو المعنى . ثم أصرروا على الكفر . و « ثم » للبعد ما بين الترتيلين . وإذا كان الفاعل هو عبد الله بن أبى فسكيب جمع « الصائير » ؟ قيل : من باب بى تميم قبلوا فلا ، والفاعل واحد منهم — لا سيما وهم على رأى واحد — .

مها : عن زيد بن أرقم قال : كنت في غرة^(١) فسمعت عبد الله بن أبي يقول : « لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينقصوا من حوله » ، « ولو رحلنا إلى المدينة ليخرجن الأعزُّ منها الأذل » ، فذكرت ذلك لعمر^(٢) ، فذكره للنبي صلى الله عليه وسلم فدعاني ، فحدثته ، فأرسل صلى الله عليه وسلم إلى عبد الله بن أبي وأصحابه ، فخلعوا ما قالوا ، فكذبني رسول الله وصدقه ، فأصابني همٌّ لم يصدني مثله قط ، فجلست في البيت ، فقال لي عمي : ما أردت

[١] هي عروة بن المصطلق ، وكانت في شعبان سنة سب . فقد روى البخاري في باب قوله تعالى : « سواء عليهم استعمرت لهم أم لم تستعمر لهم » عن جابر بن عبد الله قال : كسا في غرة فكسع — أي صرب عجره بقدمه — رجل من المهاجرين رجلا من الأنصار . وقال الأنصاري : بالأنصار ! وقال المهاجري : بالمهاجرين ! فسمع ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « ما بال دعوى جاهلية ؟ » ، قالوا يا رسول الله اكسع رجل من المهاجرين رجلا من الأنصار ، فقال : « دعوها فإنها منته » ، فسمع بذلك عبد الله بن أبي فقال : فاعلوا ! أما والله لئن رجعتا إلى المدينة ليخرجن الأعزُّ منها الأذل ، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فدعاه فأبكر . . إلى أن قال في الحديث : وكانت الأنصار أكره من المهاجرين حين قدموا المدينة ، ثم إن المهاجرين كثروا بعد وفي رواية للمعاري أيضاً : إن عمر قال عند ذلك : دعى يا رسول الله أصرب عن هذا المأوى ، فقال صلى الله عليه وسلم : « دعه ، لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه » .

قال الحافظ ابن حجر في شرح هذا الحديث : هذا مما يؤيد تقدم القصة على « تموك » ، ويوضح وهم من قال إن تلك العزاة كانت « تموك » ، لأن المهاجرين حين « تموك » كانوا كثيرين جداً ، وقد انصابت إليهم مسلمة الفتوح في عروة « تموك » فكانوا حينئذ أكثر من الأنصار ، وقد سمي ابن إسحاق والإسماعيلي وعروة هذه العزاة بأها « بن المصطلق » ، وهذا هو الذي عليه أهل المعاري .

[٢] قال الحافظ ابن حجر : أراد بعمه ها « سعد بن عباد » ، وليس هو عمه على الحقيقة ، وإنما هو سيد قومه — الحرير — .

إلى أن كذبتك^(١) رسول الله صلى الله عليه وسلم وممك ، فأرسل الله عز وجل :
« إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ . . . الْآيَةُ » فبعث إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقرأها
فقال : « إن الله قد صدقك يا زيد »^(٢) - وفي رواية فرجعت إلى المنزل
فبعت محافة أن يرانى الناس فيقولوا : كذبت - .

ومما أنه نزل عليه صلى الله عليه وسلم من سورة التوبة في أثناء رجوعه
من غزوة « تبوك » ما فضح المنافقين سواء منهم من كان معه في السفر أم من
تخلف بالمدينة بأعداد كاذبة كعبد الله بن أبي ومَن على شاكلته كأصحاب
مسجد الضرار الذى كان سيصلى فيه عقب رجوعه فمهاه الله وفضح من بذاه
مهم من رموس النفاق :

فما رل في عبد الله بن أبي في أثناء الطريق : « سَيَحْلِفُونَ لَكُمْ إِذَا
انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ لَمْ يَرْجِسْ وَمَأْوَاهُمْ حَهَم
حَزَاءَ مِمَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ . يَحْلِفُونَ لَكُمْ لَتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرَضَوْا
عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ »^(٣) .

[١] قال السكرانى . أى ما قصدت متبشراً إليه ، والمعنى ما حملك حتى صرت إلى أن
كذبتك صلى الله عليه وسلم .

[٢] إذا تأملت سياق أحاديث سورة المنافقين يدين لك حلياً أن يرول السورة وما
يتعلق بعبد الله بن أبي كان عقب العروة مباشرة ، لإد يقول الراوي : إلى مكنت في البيت
خوف الحرى حتى رلت السورة . ومن هنا تعلم صعب حواب أن سورة المنافقين رلت بعد
« تبوك » .

[٣] آيتا ٩٥ ، ٩٦ من سورة التوبة .

قال البغوى : قال مقاتل : نزلت - هذه الآية - فى عبد الله بن أبى ابن ساول ، حلف له صلى الله عليه وسلم بالله الذى لا إله إلا هو لا يتخلف عنه أبداً بعدها وطلب منه صلى الله عليه وسلم أن يرضى عنه .

من كل هذا يتبين :

أن النبى صلى الله عليه وسلم هبى عن الاستغفار للمشركين قبل الاستغفار لابن ساول مدة ثنتى عشرة سنة . ولا يجوز أن يخالف صلى الله عليه وسلم هبى الله طول هذه المدة ؛ بل ولا طرفة عين .

وأجاب الواحدى عن ذلك بأن استغفاره صلى الله عليه وسلم لأبى طالب وإن كان قبل الهجرة لكن الهبى عنه لم يرد إلا فى سنة تسع .

وعليه فلا يراد بقوله فى حديث أبى طالب « فنزلت : ما كان للنبي .. » أن النزول كان عقب الاستغفار ؛ بل يراد أن ذلك سبب النزول . فـ « الفاء » فيه للسببية لا للتعقيب . قال الألوسى : واعتمد على هذا التوجيه كثير من جلة العلماء - وهو توجيه جيد - .

وأنت ترى أن هذا الجواب صريح فى أنه صلى الله عليه وسلم مكث يستغفر لأبى طالب خطأ زهاء اثنتى عشرة سنة . فهل يجوز أن يتركه الله على خطاءه كل هذه المدة ؟ .

وأجاب بعضهم : بأنه لا مانع أن يكون الرسول علم بالنهي عن الاستغفار للمشركين ، ولكنه فهم أن ابن ساول ليس كافراً صريحاً ، فاستغفر له اجتهداً منه . ولما رُدَّ عليه : بأنه كيف يصلى عليه بعد هيبه عن الاستغفار له ، وبعد ما جاء في تدبيل آية النهي عن الاستغفار « ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ » ؟ . أجب بأن هذا التدبيل بعد الحادث ، لا متصلاً بالآية .

وأنت ترى ما في هذا الجواب !! .

والإشكال الذي لم يوجد له جواب صحيح هو أن النبي صلى الله عليه وسلم سبق أن نهى عن الاستغفار لعبد الله من أنى نفسه قبل موته نحو عامين كما جاء في سورة المنافقين — كما تقدم — . وأيضاً ما قاله الزمخشري : من أنه كيف يخفى على أفصح الخلق وأحبرهم بأساليب الكلام وتمثيلاته أن المراد بـ « السبعين » أن الاستغفار ولو كثر لا يحدى ، لا سيما وقد جاء بعده قوله تعالى : « ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ... الآية » ، فبين الصارف عن المغفرة لهم ؟ .

ولذا قال الحافظ ابن حجر : واستشكل فهم « التحجير » — أَسْتَغْفِرُ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ — من الآية حتى أقدم جماعة من الأكابر على الطعن في صحة هذا الحديث مع كثرة طرقه : قال ابن المنير : مفهوم الآية رأت فيه

الأقدام، حتى أسكر القاضي أبو بكر الباقلاني صحة هذا الحديث ، وقال : لا يجوز أن يقبل هذا ، ولا يصح أن الرسول قاله . وصيغة ما قاله في كتاب « التقريب » : وهذا الحديث من أخبار الآحاد التي لا يعلم ثبوتها . وقال الغزالي في كتاب « المستصفى » : الأظهر أن هذا الخبر غير صحيح . وقال ابن المنير : ليس عند أهل البيان تردد في أن الخصيص بالعدد في هذا السياق غير مراد ، فقصده المبالغة واصح ، فلما استشكلوا قوله صلى الله عليه وسلم : « سأزيد على السبعين » مع أن حكم ما راد عليها حكمها . ولذا قال بعض العلماء : والحق أن هذا الحديث معارض للآيتين : آية « راءة » ، وآية « المنافقين » ...

فالذين يعنون بأصول الدين ودلائله القطعية أكثر من الروايات والدلائل الظنية لم يحدوا ما يحجبون به عن هذا المعارض إلا الحكم بعدم صحة هذا الحديث ، ولو من جهة مثنه . وقد تقدم كثير منهم كالقاضي أبي بكر الباقلاني والغزالي .

وأما الذين يعنون « بالأسانيد » أكثر من عنايتهم بـ « المتون » ، وبالفروع أكثر من الأصول فقد تكلفوا أجوبة لا يقبلها منصف .

ومن الأصول المتفق عليها : أنه ليس كل ما صح سنده صح مثنه ، وإنما يعول على صحة السند إذا لم يعارض المتن ما هو قطعي ، وأن القرآن مقدم على الحديث عند التعارض وعدم إمكان الجمع بينهما .

الفصل الثاني

عمد صلى الله عليه وسلم اجتهاداً

في الفصل السابق ذكرنا أمثلة من اجتهاده صلى الله عليه وسلم في صور قولية ، والآن نذكر أمثلة أخرى لاجتهاده عليه السلام لها الطابع العملي . وبذا تقاكد إنسانيته فيما خرج عن دائرة الرسالة والتبليغ .

وكما رأينا في الصور السابقة لاجتهاده عليه السلام من إقرار الله سبحانه وتعالى لما رأى صلى الله عليه وسلم أو عدم إقراره لذلك سرى هذا أيضاً نفس هذا الحال مما يدل دلالة واضحة على أن الذي بدا من الرسول الكريم كان له خاصة كإنسان، ولم يصدر عنه كموحى إليه .

فمن هذه الأمثلة :

- ١ — أنه صلى الله عليه وسلم صلى على عبد الله بن أبي بن سلول — باعتبار ما في الصلاة من أعمال كاستقبال القبلة ورفع اليدين عند التكبير مثلاً — ^(١) ،
- ٢ — وأن الله سبحانه وتعالى لم يقره على ذلك — كما تقدم — .

[١] وقد سبق الحديث صمماً عن ذلك في الفصل السابق تحت عنوان : ما بدا من اجتهاده في صورة الاستعفار لبعض المنافقين ، ص ١١٤ .

١ — أخذه صلى الله عليه وسلم الفداء من أسرى بدر ، إذ يروى ابن أبي شيبة والترمذي وحسنه ، وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وصححه ، وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن مسعود قال : لما كان يوم بدر حىء بالأسارى فقال أبو بكر ، يا رسول الله ! قومك وأهلك ، استبقهم لعل الله أن يتوب عليهم ، وقال عمر بن الخطاب : يا رسول الله ! كذبوك وأحرقوك وقانلوك ، قدّمهم فاضرب أعناقهم . وقال عبد الله بن رواحة : انظر واديا كثير الخطب فأضرمه عليهم داراً ، فقال العباس — وهو يسمع ما يقول — قطعت رحمك ، فدحل النبي صلى الله عليه وسلم ولم يرد عليهم شيئاً ، فقال أناس : يا أحد نقول أبي بكر ، وقال أناس : يا أحد برأى عمر ، فخرج رسول الله صلى عليه وسلم فقال : « ان الله ليلين قلوب رجال حتى تكون ألين من اللبن ، وإن الله ليشدد قلوب رجال حتى تكون أشد من الحجاة ، مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم عليه السلام ، قال : فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنه غفور رحيم^(١) ، ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى عليه السلام ، قال : إن تعدّهم فإهم عبادك وإن تغرهم فإبك أنت العزيز الحكيم^(٢) ، ومثلك يا عمر كمثل موسى

[١] آية ٣٦ سورة إبراهيم .

[٢] آية ١١٨ سورة المائدة .

عليه السلام ، إذ قال : « رَغْنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَزُولَ الْمَذَابَ الْأَلِيمُ »^(١) ، ومثلاك يا عمر كمثل روح عليه السلام ، إذ قال : رَبُّ لَا تَدْرُ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَنَارًا^(٢) ، ثم قال صلى الله عليه وسلم : أنتم عالة^(٣) فلا تنفلتن أحد من الأسرى إلا بعداء أو ضرب عنق .

٢ — فأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : « مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُفْخِنَ فِي الْأَرْضِ ... إِلَى قَوْلِهِ عَظِيمٌ »^(٤) .

ويروى أحمد^(٥) ومسلم من حديث ابن عباس عن عمر بن الخطاب - في نفس الموضوع - قال : لما أسر الأسارى - يعنى يوم بدر - قال صلى الله عليه وسلم لأبى بكر وعمر : « ما ترون فى هؤلاء الأسارى ؟ » فقال أبو بكر : يا رسول الله ! هم بنو العم والعشيرة أرى أن نأخذ منهم فدية ، فتسكون قوة لنا على الكفار ، وعسى الله أن يهديهم للإسلام ، فقال رسول الله صلى الله

[١] آية ٨٨ سورة يونس .

[٢] آية ٢٦ سورة نوح .

[٣] أى فقراء فى حاجة إلى مال العداة .

[٤] آيتى ٦٧ و ٦٨ سورة الأنفال وسيأتى شرحهما .

[٥] ورواية أحمد أكثر تفصيلا .

عليه وسلم : ما نرى يا ابن الخطاب ؟ فقال : لا والله لا أرى الذى رأى أبو بكر ولكى أرى أن تمكثنا فنضرب أعناقهم ، فإن هؤلاء أئمة السكمر وصناديدها ^(١) ، فهوى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال أبو بكر ولم يهو ما قلت . فلما كان الغد حثت فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر قاعدان يبكيان ، قلت يا رسول الله ! أحربنى من أى شىء تمكى أنت وصاحبك ، فإن وجدت بكاء بكيت وإن لم أجد بكاء تبأكيت ، فقال صلى الله عليه وسلم : « أبكى للذى عرض لأصحابى من أخذهم الغداء ، ولقد عرض على عدا بهم أدنى من هذه الشجرة - لشجرة قريبة منه صلى الله عليه وسلم - ،

فأنزل الله عز وجل : « مَا كَانَ لِئَنى أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُشْخِنَ فِي الْأَرْضِ . . إلى آخر الآيتين » ^(٢) .

وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عمر - فيه أيضاً -

[١] صايددها أى صايد قريش وهم رؤساؤها .

[٢] وقال ابن جرير فى معنى الآية : « الأسر » فى كلام العرب معناه الحبس فالمعنى : ما كان لى أن يحتبس كافرأ وقد عليه وصار فى يده من عمدة الأوثان للغداء أو الملى ، فالله سبحانه وتعالى يعرف بنيه أن قتل المشركين الذين أسروهم يوم بدر وفاداهم كان أولى بالصواب من أخذ المدينة منهم وإطلاقهم . ومعنى « ويخشن فى الأرض » أى يهظم شأنه ويعلط بأن تتم له القوة والعلب فلا يكون اتحاده الأسرى سبباً لصعته أو قوة أعدائه . قال الواحدى : الإثخان فى كل شىء عبارة عن قوته وشدته ، يقال : قد أثخمه المرض إذا اشتد عليه ، وكذلك أثخمته الحراح ، والتخابة العلطة ، وكل شىء عليل فهو يخى .

قال : اخلف الناس في أسارى بدر ، فاستشار صلى الله عليه وسلم كبار أصحابه ،
وأخذ صلى الله عليه وسلم بقول أنى بكر ، ففاداهم ،

فأنزل الله تعالى : « لَوْ لَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَخَذْتُمْ
عَذَابٌ عَظِيمٌ » ، فقال صلى الله عليه وسلم : « إن كاد ليمسنا في خلاف
ابن الخطاب عذاب عظيم ، ولو نزل العذاب ما أفلت إلا عمر » . وأخرج ابن
جرير عن أنى زيد قال : لم يكن من المؤمنين أحد ممن بُصر إلا أحب الغنائم
إلا عمر بن الخطاب جعل لا يلقى أسيرا إلا ضرب عنقه ، وقال : يا رسول الله :
ما لنا وللغنائم ؟ نحن قوم مجاهد في دين الله حتى يعبد الله ، فقال صلى الله عليه
وسلم : « لو عذبنا في هذا الأمر يا عمر ما نجا غيرك » .

١ — عبوسه صلى الله عليه وسلم في وجه ابن أم مكتوم الأعشى على نحو
ما ورد في قوله تعالى : « عَبَسَ وَتَوَلَّى » .

قال الحافظ ابن حجر : لم يختلف السلف في أن فاعل « عبس » هو النبي
صلى الله عليه وسلم .

وأخرج الترمذى والحاكم وابن حبان عن عائشة قالت : نزلت في ابن أم
مكتوم الأعشى ، قال يا رسول الله أرشدنى ! — وعند النبي صلى الله عليه وسلم

ناس من وجوه المشركين منهم أبو جهل وعتبة بن ربيعة وغيرها - فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يعرض عن ابن أم مكتوم ، و يقبل على غيره

٢- فترات : « عَبَسَ وَتَوَلَّى أَنْ حَاءَهُ الْأَعْمَى وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلُّهُ يَزْكَى أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْمَعُهُ الذِّكْرَى . أَمَّا مَنْ اسْتَعْنَى فَأَتَتْ لَهُ تَصَدَّى وَمَا عَلَيْكَ إِلَّا يَزْكَى . وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى وَهُوَ يَخْشَى فَأَتَتْ عَنْهُ تَلَهَّى . كَلَّا إِهَآ تَذَكَّرَ » .

قال صاحب المنار^(١) في ذلك : احتهد صلى الله عليه وسلم في الإعراض عن الأعشى عندما جاءه وهو مشغول بدعوة أكار قريش إلى الإسلام ، وقد لاحت له نازقة رجاء في إيمانهم بنحوهم معه ، فعلم صلى الله عليه وسلم أن إقباله على الأعشى قد ينهمهم ويقطع عليه طريق دعوه ، وقد كان يرجو بإيمانهم انتشار الإسلام في جميع العرب ، ولم يكن يعلم حينئذ أن سنة الله في البشر أن يكون أول من يتبع الأنبياء والمصلحين فقراء الأمم وأوساطهم ، دون الأكار المحرمين المترفين الذين يرون في اتباع غيرهم صعة نذهب رياستهم .

وقال الألوسي أيضاً في تفسير سورة (عبس) :

[١] عند شرح قوله تعالى « عما الله عماك لم أدت لهم » .

جاء ابن أم مكتوم^(١) إلى النبي صلى الله عليه وسلم وعنده صناديد قریش يدعوهم إلى الإسلام رجاء أن يسلم بإسلامهم غيرهم ، فقال يا رسول الله : علمني مما علمك الله ، وكرر ذلك ، ولم يعلم تشاغله صلى الله عليه وسلم بالقوم ، فكره صلى الله عليه وسلم قطعه لكلامه وعدس وأعرض عنه فنزلت : « عَبَسَ وَتَوَلَّى أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ... الخ » . فكان صلى الله عليه وسلم بعد ذلك يكرمه ويقول إذا رآه : مرحباً بمن عاتى فيه ربي ، ويقول : هل لك من حاجة^(٢) ؟ .

[١] وابن أم مكتوم هو ابن خال حديجة واسمه عمرو بن قيس القرشي ، وأم مكتوم كنية أمه ، واسمها عائكة بنت عبد الله المخزومية ، وكان أعمى وعمى بعد نور . وقيل ولد أعمى ولذا قيل لأمه أم مكتوم . وهو ابن خال حديجة أم المؤمنين . أسلم قديماً بمكة وكان من المهاجرين الأوائل . هاجر إلى المدينة قبل هجرته صلى الله عليه وسلم إليها . والمشهور أن اسمه عند الله وسبب حواء اسمه هو شهرته بكنيته (ابن أم مكتوم) . قال الرقائي على المواهب اللدنية حرة ٣ ص ٣٧٠ وعمره ابن أم مكتوم بسبب لأمه . ورغم بعضهم أنه ولد أعمى فكيف أمه به لاكتام نور بصره (أي حنسه) والمعروف أنه عمى بعد مدة من ولادته . وطاهر كلام أهل اللغة أن التكنية بأب مكتوم لا علاقة لها بمعنى اسمها ، قال في المصباح المير في مادة كتم (وحديث مكتوم . وبه كنيته المرأة فقيل أم مكتوم) .

[٢] قال الألويسي بعد ذلك : عرفت في (عباس) نصيب العيبة ثم خاطب في (وما يدريك) قيل لإحلاله صلى الله عليه وسلم لإيهام أن من صدر عنه العبوس غيره - صلى الله عليه وسلم - لأن من شأنه ألا يصدر عنه مثل ذلك ، ثم خاطبه إيجاباً بعد إباحاش ، وإقبالاً =

سوقه صلى الله عليه وسلم الهدى ، وتمنيه أن لم يكن ساقه

١— روى البخارى عن جابر بن عبد الله أن النبی صلى الله عليه وسلم أهل وأصحابه بالحج وليس مع أحد منهم هدى غير النبی صلى الله عليه وسلم وطلحة ابن أبى رباح ، وفى رواية أحمد ومسلم : غير النبی صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر وذی اليسار ، وأن النبی صلى الله عليه وسلم أذن لأصحابه أن يجعلوها عمرة . يطوفوا ثم يقصروا ويحلوا إلا من معه الهدى . فقالوا أنطلق إلى مى وذكر أحدنا يقطر^(١) ؟ : فبلغ النبی صلى الله عليه وسلم

٢— فقال : « لو استقبلت من أمرى ما استقبلت ما أهديت ولولا أن معى الهدى لأحللت » .

= بعد لإعراس . ثم قال أيضاً وقيل إن العيبة أولوا الخطأ ثانياً لريادة الإسكار وذلك كمن يشكو إلى الناس رجلاً ثم يقل على هذا الرجل اذا اشتدت السكاية مواجهاً بالوم والمرام الحجة . وفى ذكر ابن أم مكتوم (بالأعمى) دون ذكر اسمه لإشعار بعدره فى الإقدام على قطع الكلام ، ولأنه وصف يناسب الإقبال عليه لا الإعراس عنه ، ففيه لوم آخر . « كلا » قال السبي معناها ردع وحرر أى لا تعد لمثل ذلك (لها) أى هذه الآيات وما نزلت بسببه (تدكرة) أى موعظة يجب الاتعاط بها والعمل بموجبها . روى ابن جرير عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن قصى نجواه مع المشركين وذهب إلى أهله ، رأت الآيات . وفى بعض الآثار أنه صلى الله عليه وسلم ما عدس بعد ذلك فى وجه فقير ، ولا تصدى لعى لعناه . فتأدب الناس بعد ذلك أدباً حسناً . [١] استبشعوا أن يتحللوا التحلل الذى يبيع لهم النساء وغيرها .

وروى أحمد وابن ماجه عن البراء بن عازب قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وخرجنا معه فأحرمنا بالحج ، فلما قدمنا مكة قال : « احملوا حجاجكم عمرة » ، قال : فقال الناس يا رسول الله ! : قد أحرمنا بالحج فكيف نجعلها عمرة ؟ . قال : « انظروا ! ما أمركم به فافعلوا » فردوا عليه القول ، ثم زادوا : أندخل البيت ومذا كبرنا تقطر منيا ؟ . فغضب صلى الله عليه وسلم ، ثم انطلق حتى دخل على عائشة وهو غضبان ، فرأت الغضب في وجهه ، فقالت : من أغضبك أغضبه الله ، قال صلى الله عليه وسلم : « ومالي لا أغضب وأنا آمر بالأمر فلا أتبع » .

وقد صح في الأحاديث أنهم بعد ذلك فعلوا ما أمرهم صلى الله عليه وسلم به وتحلل كل من لم يكن معه هدى .

دحوله صلى الله عليه وسلم في جوف الكعبة ثم تألمه لذلك^(١)

١ — روى أحمد في مسنده والترمذى وأبو داود وابن ماجه عن عائشة قالت : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من عندي وهو قرير العين ، طيب النفس ،

٢ — ثم رجع إلى وهو حزين القلب فقلت يا رسول الله ! : خرجت من

عندى وأنت كذا وكذا ، فقال : « إني دخلت السكبة ووددت أني لم أكن فعلت ، إني أخاف أن أكون قد أتعبت أمتي من بعدى » .

إقراره صلى الله عليه وسلم كتابة شروط الصلح مع قائدى غطفان يوم الخندق ^(١) .

روى ابن كثير فى تاريخه ^(٢) ، قال ابن إسحاق : لما اشتد البلاء على الناس بالحصار الذى مكث نحو شهر ، نعت صلى الله عليه وسلم إلى عيينة بن حصن والحارث بن عوف المرى وهما قائدا غطفان ^(٣) وأعطاهما ثلث ثمار المدينة على أن يرجعا من معهما عنه وعن أصحابه ، فجرى بينهما وبينهم الصلح حتى كتبوا الكتاب ولم تقع الشهادة ولا عزيمة الصلح ^(٤) فلما أراد صلى الله عليه وسلم أن يفعل ذلك . نعت إلى السعدين - سعد بن معاذ وسعد بن عباد - فذكر لهما ذلك واستشارهما فيه . فقالا يا رسول الله ! : أمراً تحبه فنصنعه ، أم شيئاً أسرك الله به لا بد لنا من العمل به ، أم شيئاً تصفه لنا ؟

١ — فقال صلى الله عليه وسلم : « بل شئ أصفه لكم ، والله ما أصنع ذلك

[١] وإذا نظر إلى ما حصل منه صلى الله عليه وسلم من الكلام صح وضع هذا البحث فى فصل اجتهاده صلى الله عليه وسلم بالقول المتقدم ذكره .

[٢] جزء ٤ ص ١٠٤ .

[٣] من القائل الكبيرة التى كانت تقيم فى مبارها شرق المدينة على مسافة منها .

[٤] أى إمضاء الشرط وتوقيعه .

إلا لأنى رأيت العرب رمتكم عن قوس واحد وكالبوكم^(١) من كل جانب ،
فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمرٍ ما » . فقال سعد بن معاذ :
يا رسول الله ! : قد كننا وهؤلاء على الشرك بالله وعبادة الأوثان لا نعبد
الله ولا نعرفه وهم لا يطمعون أن يأكلوا منا ثمرة واحدة إلا قرى أو نبيعا ،
أخفين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه ، نعطيهم أموالنا ؟ ، ما لنا
بهذا من حاجة ! والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم ،
٢ — فقال صلى الله عليه وسلم : « أنت وذاك » . فتناول سعد الصحيفة
فحما ما فيها من الكتاب ، ثم قال : ليمجدهوا أنفسهم .

[١] المصباح : كاله مكالة أظهر عداوته ومباينته العدااء وحاهره به .

الفصل الثالث^٧

في موقفه مما اجتهده فيه أصحابه صلى الله عليه وسلم في عصره
في غيبته وفي حضوره

ما حصل يوم بدر :

١ — قال ابن كثير وابن الأثير : قال ابن إسحاق : خرج صلى الله عليه وسلم يوم بدر يمدد قريشاً إلى الماء . ورجل المسلمون على أول ماء من بدر ، فجاء الحباب بن المنذر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : يا رسول الله ! : أرايت هذا المنزل ؟ : أمزلاً أنزله الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه ، أم هو الحرب والرأي والمكيدة ؟ قال : « بل هو الحرب والرأي والمكيدة » ، قال يا رسول الله ! : فإن هذا ليس بمثل فاهض بالناس حتى تأتي أدنى ماء من القوم فننزله ، ثم نغور^(١) ما وراءه من القلب ، ثم نبنى عليه

[١] يذهب الماء من كل قلب غير الذي نزلنا عنده ، والقلب الثرى يذكر وقد يؤث .
جميعه قلب بصر أوله وثانيه كندير وبدر .

حوضاً فتملأه ماء ، ثم نقاتل القوم فشرب ولا يشربون ، فقال له : « لقد أشرت بالرأى » ، وفعل كما قال .

٢ — ثم إن سعد بن معاذ قال يا رسول الله ! ألا ندى لك عريشاً تكون فيه وبعده عندك ركائبك ؟ ثم تلقى عدونا ، فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا ، وإن كانت الأخرى حاست على ركائبك فلهجت من وراءنا من قومنا ، فقد تخلف عنك أقوام يا نبي الله ، ما نحن أشد حبا لك منهم ، ولو ظنوا أنك تلقى حرباً ما تخلفوا عنك ، فأثنى عليه صلى الله عليه وسلم ، ودعا له بخير ، وأمر ببناء العريش فبنى له .

اجتهاد أبي بكر رضى الله عنه في مضمره صلى الله عليه وسلم في غزوة حنين:

روى البخارى عن أنى قتادة قال : خرجنا مع النبی صلى الله عليه وسلم عام حنين فلما التقينا كانت للمسلمين حولة^(١) ، ورأيت رجلاً من المشركين قد علا^(٢) رجلاً من المسلمين مضربه من ورائه على حبل عاتقه بالسيف فمقطعت الدرع ، وأقبل على فصمنى ضمةً وحدث منها ريح الموت ،

[١] حولة : حركة فيها اختلاف . وفي الرواية التي بعدها أن بعضهم اهرموا

[٢] علا : أى ظهر وفي الرواية التي بعدها ما يوضحه .

ثم أدركه الموت فأرسلني ، فلهجت عمر بن الخطاب فقلت ما بال الناس ^(١) ؟ قال : أمرُ الله عز وجل ، ثم رجعوا وجلس النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : « من قتل فتيلاً له عليه بيّنة فله سلبه » ، فقلت من يشهد لي ؟ ثم جلست فقال النبي صلى الله عليه وسلم مثله ، فقامت فقلت من يشهد لي ؟ ثم جلست ، قال : ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم مثله ، فقامت فقال : « مَالَكِ يَا أَبَا قَتَادَةَ ؟ » فأحبرته ، فقال رحل : صدق ، وسلبه عندي ، فأرضه منه ^(٢) ، فقال أبو بكر : لا ها الله إذاً لا يَعْمِدُ ^(٣) إلى أسد من أسد الله يقاتل عن الله ورسوله ، فيعطيك سلبه ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « صدق . فأعطه » فأعطانيه .

وفي رواية أخرى للبخاري عن أبي قتادة أيضاً قال . لما كان يومُ حنين نظرت إلى رحل من المسلمين يقاتل رجلاً من المشركين وآخر من المشركين يحتله ^(٤) من ورائه ليقته : فأسرع إلى الذي يحتله فرفع يده ليضربني ، وأضرب يده فقطعها ، ثم أحدي مصمى ضماً شديداً حتى تحوفت ثم برك

[١] يريد بالذات المسلمين عدائهم كما سيأتي في الرواية الأخرى .

[٢] من هذا للدلالة على أنه أعطاه شيئاً من عندك يا رسول الله ندلاً من هذا . وكان صلى الله عليه وسلم لا يسأل شيئاً إلا أعطاه ، لذلك أسرع أبو بكر في الرد على هذا السائل وأسار بإعطاء السلب للقاتل .

[٣] لا يقصد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى رجل كأنه أسد ويعطيك حقه بغير طيبة من نفسه .

[٤] يحتله : أي يريد أن يأخذه على عرة .

فتحاح^(١) ودفعته ثم قتلته ، واهزم المسلمون واهزمت معهم ، فإذا بعمر بن الخطاب في الناس فقلت له : ما شأن الناس ؟ قال : أمر الله ، ثم تراجع الناس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أقام بينة على قتيل قتله فله سلبه » فقامت لألتبس بينة على قبيلي ، فلم أر أحداً يشهد لي ، فجلست ، ثم بدا لي ، فذكرت أمره لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال رجل من جلسائه : سلاح هذا القتيل الذي تذكر عندي ، فأرضه منه ، فقال أبو بكر : كلاً لا يعطه أصيبغ^(٢) من قريش ، ويدع أسداً من أسد الله يقاتل عن الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، قال : فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فأداه إلى .

أقراره صلى الله عليه وسلم رقي بالفاتحة على أخضر الزهر :

روى البخاري عن أبي سعيد الخدري قال : اطلق نفر من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم في سفرة سافروها حتى نزلوا على حي من أحياء العرب

[١] حارت قواه .

[٢] قال ابن حجر : الأصيب : نوع من الطير ، أو شبهه بدأت ضعيف يقال له الصعاء إذا طلع من الأرض يكون أول ما يلي الشمس منه أصف . وفي رواية أصيبع بالصاد والعين تصغير الصع على غير قياس . كما أنه لما عظم أبا قتادة بأنه أسد صعر خصمه وشبهه بالصع لصعب افتراسه وعجزه .

فاستصافوهم فأبوا أن يضيفوهم فلدغ سيد ذلك الحى فسمعوا له بكل شيء ،
لا ينفعه شيء . فقال بعضهم : لو أنيتم هؤلاء الرهط الذين نزلوا لعله أن يكون
عند بعضهم شيء ؟ فأتوهم فقالوا : إن سيدنا لدغ ، فهل عند أحدكم شيء ؟
فقال بعضهم : نعم ، ولكن لا نفعل حتى تجعلوا لنا حملاً ، فصالحوهم على
قطيع من الغنم . فاطلق يقرأ عليه : « الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » فكأبما
أشط^(١) من عقال ، فاطلق يمشى وما به علة ، فأوقوهم جعلهم . فقال
بعضهم : اقساموا ، فقال الذى رقى : لا تفعلوا حتى نأتى النبى صلى الله عليه وسلم
فمذكر له الذى كان فنظر ما يأمرنا ، فقدموا ، فدكروا ذلك له صلى الله
عليه وسلم ، فقال : « وما يدريك أنها رقية ؟ » ثم قال : « قد أصبتم ، اقساموا
واضربوا لى معكم سهما » وضحك صلى الله عليه وسلم .

قال الحافظ فى روايةٍ إسماعيل أعطوهم ثلاثين شاة ، وكان عدد الركب
ثلاثين رجلاً وقوله : « الحمد لله » أى فاتحة الكتاب ، وقوله : « وَمَا
يُذَرِّيكَ » زاد فى رواية فقلت يا رسول الله : شيء ألقى فى روعى . قال الحافظ

[١] قال ابن الأثير فى النهاية أشط من عقال أى حل وكثيراً ما يحىء فى الرواية كأبما
شط من عقال وليس بصحيح قال فى المصباح : أشطت العير من عبالة : أصلته والأنشطة
بضم الهمزة رطة دون العقدة إذا مدت بأحد طرفيها انفتحت واسطى فى عمله من باب تب
خف وأسرع .

وهو ظاهر في أنه لم يكن عنده علم متقدم بمشروعية الرقي بالما تحة ، أى فيكون .
قد فعل ذلك اجتهاداً منه .

لم يقر صلى الله عليه وسلم منه صلى بصلاته في قيام رمضان خوف
مشفقة الفرصه على أمته :

روى البخارى عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى ذات
ليلة في المسجد^(١) ، فصلى بصلاته ناس ، ثم صلى من القابلة فكثر الناس ،
ثم احتجموا من الليلة الثالثة أو الرابعة^(٢) فلم يخرج إليهم صلى الله عليه وسلم .
فلما أصبح قال : « قد رأيت الذى صنعتم ، ولم يمنعنى من الخروج إليكم إلا
أنى خشيت أن تفرض^(٣) عليكم وذلك في رمضان . . » انتهى الحديث .

[١] وفي رواية كان يحتجر حصيراً بالليل صلى عليه . ويسطه بالنهار فيجلس عليه ، قال
البوصى : معنى يحتجر : يحوط موضعاً من المسجد بحصير يستريحه ليصلى فيه ولا يمر بين يديه
ما رليستوى خشوعه ويتفرغ قلبه .

[٢] وفي رواية : فصلى رجال بصلاته فأصبح الناس فتحدثوا فكثر أهل المسجد من
الليلة الثالثة فحرج فصالوا بصلاته . فلما كانت الليلة الرابعة عجز المسجد عن أهله .

(٣) وفي رواية : لى خشيت أن تفرض عليكم صلاة الليل فتعجزوا عنها ، قال
القرطبى : خشى صلى الله عليه وسلم أن يظن أحد من الأمة من مداومته عليها الوحوب .
كما إذا طن المجتهد حل شىء أو تحرر به فإنه يحب عليه العمل به . وقال ابن بطال : يحتمل =

فهذا يدل على أنهم صلوا وراءه صلى الله عليه وسلم بدون إذن منه بل
ما جتهاد مهم ، ولم يقرهم على ذلك خوف أن يفرض عليهم قيام رمضان وغيره .

أن يكون هذا القول صدر منه صلى الله عليه لما كان قيام الليل فرضاً عليه دون أمته وحشى
إن حرج لإلهم والبرموا معه قيام الليل أن يسوى الله بينه وبينهم في حكمه لأن الأصل في
الشرع المساواة بين النبي وبين أمته ، وقد استشكل الخطابي أصل هذه الحشية منه صلى الله
عليه وسلم مع ما ثبت في حديث الإسراء من أن الله تعالى قال : هـن خمس وهن خمسون
لا يبدل القول لدى ، فإذا أفس التبدل فكيف يقع الخوف من الريادة ، وقد نقل الحافظ
اس حصر أحواله كثيرة لم يرصها ، ثم قال وقد فتح المارى بثلاثة أحواله أخرى أحدها :
يحتمل أن يكون المخوف افتراض قيام الليل بمعنى جعل التهجيد بالمسجد جماعة شوطاً في صحة
المتقل بالليل ويومئ لإليه قوله في حديث زيد بن ثابت (حق حشيت أن يكتب عليكم ولو
كتب عليكم ما هم به وصلوا أيها الناس في بيوتكم) فهم من التجمع في المسجد لإشفاقاً
عليهم من اشتراطه .

ثانيها : يحتمل أن يكون المخوف افتراض قيام الليل على الكفاية لا على الأعيان فلا
يكون رائداً على الخمس المفروضة كل يوم على كل مكلف . بل هو نظير ما ذهب إليه بعض
العلماء في وجوب صلاة العيد

وثالثها : يحتمل أن يكون المخوف افتراض قيام رمضان خاصة فقد وقع في حديث الباب
أن ذلك كان في رمضان .

وفي رواية خشيت أن يفرض عليكم قيام هذا الشهر . وقيام رمضان لا يتكرر كل
يوم فلا يكون قدراً رائداً على الخمس .

سكونه صلى الله عليه وسلم على حلف عمر رضى الله عنه على أنه
« ابن الصياد » هو الدجال

روى البخارى^(١) ومسلم عن محمد بن المنكدر قال : رأيت جابر بن
عبد الله يحلف بالله أن ابن الصياد هو الدجال ، قلت : تحلف بالله ؟ قال : إني
سمعت عمر بن الخطاب يحلف على ذلك عند النبي صلى الله عليه وسلم فلم ينكره
النبي صلى الله عليه وسلم .

وروى مسلم في صحيحه عن أنس بن سعيد الخدرى رضى الله عنه قال :
صحبنى ابن الصياد إلى مكة فقال لى : ماذا لقيت من الناس ؟ يزعمون أنى
الدجال ، ألتست سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إنه
لا يولد له ؟ » قلت : بلى ، قال : فإنه قد ولد لى ، قال : أولست سمعته يقول :
لا يدخل المدينة ولا مكة ! قلت بلى ، قال : فقد ولدت بالمدينة ، وها أنا ذا
أريد مكة ، ألم نقل المى صلى الله عليه وسلم : « إن الدجال يهودى ! »
وقد أسلمت .

[١] فتح البارى جزء ١٣ كتاب الاعتصام باب من رأى ترك المسكر من النبي صلى الله
عليه وسلم حجة ، وفى مسلم فى كتاب المتن ٨ متن . أبواب ابن الصياد والدجال
(١٠)

وروى مسلم عن فاطمة بنت قيس حديثاً طويلاً جاء فيه قولها : سمعت منادى رسول الله صلى الله عليه وسلم ينادى : الصلاة جامعة ! فخرجت إلى المسجد فصلبت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكنيت في صف النساء اللاتي تلى ظهور القوم ، فلما قضى صلى الله عليه وسلم صلاته جلس على المنبر وهو يضحك وقال : « جمعتكم لأن تميما الدارى كان رجلاً نصرانياً فجاء وباع وأسلم ، وحديثى حديثاً وافق الذى كنت أحدثكم عن المسيح الدجال : حدثنى أنه ركب فى سفينة مع ثلاثين رجلاً ... إلى أن قال : ثم أرفأ^(١) إلى جزيرة فى البحر ، فلقيتهم دابة كثيرة الشعر وقالت : أنا الجساسة ، ثم قالت : اطلقوا إلى هذا الرجل فى الدير ، فدخلنا الدير فإذا فيه أعظم إنسان^(٢) رأيناه قط خلقه وأشدّه وثاقاً ، مجموعة يده إلى عنقه ما بين ركبتيه إلى كعبيه بالحديد ، قلنا ما أنت ؟ قال : أخبرونى أولاً عن كذا وكذا ، وسأل كثيراً ثم قال : أخبرونى عن بنى الأميين ما فعل ؟ قالوا قد خرج من مكة ونزل يثرب ، قال : أقاتله العرب ؟ قلنا : نعم ، قال : كيف صنع بهم ؟ فأخبروه أنه قد ظهر على من يليه من العرب وأطاعوه ، قال : ذلك خير لهم ، وإنى محرم عنى : إنى أنا المسيح ، وإنى يوشك أن يؤذن لى فى الخروج ، فأخرج فأسير فى الأرض

[١] أرفأ : جنح .

[٢] لما فى هذه الجملة من معنى النقي صرح ذكر (قط) لأنها لا تستعمل إلا مع النقي ، ومعنى الجملة (ما رأينا مثله الح)

فلا أدع قرية إلا هبطتها في أربعين ليلة غير مكة وطيبة ، فهما محرمتان عليّ» .
 قالت فاطمة بنت قيس : قال صلى الله عليه وسلم - وطعن بمخبرته^(١) في
 المنبر - « هذه طيبة ، هذه طيبة ، هذه طيبة ، ألا هل كنت حدثتكم ذلك ؟
 فقال الناس : نعم ، فإنه أعجبنى حديث تميم ، إنه وافق الذي كنت أحدثكم
 عنه ... الخ » .

قال الحافظ ابن حجر في شرح حديث البخاري المتقدم ذكره : كأن جابراً
 لما سمع عمر يحلف عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم ينكر عليه فهم منه
 المطابقة . ولكن بقي أن شرط العمل بالتقرير ألا يعارضه التصريح بخلافه .

قال ابن بطال : فإن قيل ثبت في الصحيح أن عمر قال للنبي صلى الله
 عليه وسلم في قصة ابن الصياد^(٢) : دعني أضرب عنقه ، فقال صلى الله عليه وسلم :
 « إن يكنه فلن تسلط عليه ، وإن لم يكنه فلا خير لك في قتله » ، فهذا صريح
 في أنه عليه السلام تردد في أمره ، يعني فلا يدل سكوته عن إنكاره عند حلف

[١] المختصرة كمسكنة اسم لسكل ما يتكأ عليه من عصا وعكاز وغيرها .
 [٢] يشير إلى حديث طويل رواه مسلم جزء ٨ متن . صفحة ١٩٢ أوله : أن عمر بن الخطاب
 انطلق مع النبي صلى الله عليه وسلم إلى أن قال : ولقينا ابن الصياد فقال ابن الصياد كلمة
 خاطئة فقال عمر بن الخطاب : دري يا رسول الله أضرب عنقه فقال له صلى الله عليه وسلم :
 « إن يكنه فلن تسلط عليه ... الخ » .

عمر على أنه هو — أجب بأن التردد كان قبل أن يعلمه الله تعالى بأنه هو الدجال ،
 فلما أعلمه لم ينكر على عمر حلمه ، ثم قال : قال البيهقي : ليس في حديث
 جابر أكثر من سكوت النبي صلى الله عليه وسلم على حلف عمر ، فيحتمل أن
 يكون النبي عليه السلام كان متوقفاً في أمره ، ثم جاء التثبت من الله تعالى
 بأنه غيره ، على ما تقتضيه قصة تميم الداري . وبه تمسك من جزم بأن الدجال
 غير ابن الصياد .

وكأن الدين يجزمون بأن ابن الصياد هو الدجال لم يسموا بقصة تميم ،
 وإلا فالجمع بينهما بعيد جداً . إذ كيف يلتزم أن يكون من كان في حياته
 صلى الله عليه وسلم شبه المحتلم ويجتمع بالنبي صلى الله عليه وسلم وسلم ؟ ،
 كيف يكون شيخاً كبيراً مسجوناً في حزيرة ، ويسأل عنه عليه السلام : هل
 خرج أم لا ؟ .

قال الخطابي : اختلف السلف في أمر ابن الصياد بعد كبره : فروى أنه
 تاب من ذلك القول ومات بالمدينة ، وأنهم لما أرادوا الصلاة عليه كشفوا عن
 وجهه حتى يراه الناس ، وقيل لهم : اشهدوا ! .

وقال ابن دقيق العيد : إذا أخبر محضرته صلى الله عليه وسلم عن أمر

ليس فيه حكم شرعى ، فهل يكون سكوته صلى الله عليه وسلم دليلاً على مطابقة ما فى الواقع ، كما وقع لعمر فى حلفه على أن ابن الصياد هو الدجال كما فهمه جابر حتى صار يحلف عليه ، ويستند إلى حلف عمر ؟ أم لا يدل ؟ فيه نظر . والأقرب عندى أنه لا يدل . لأن مأخذ المسألة ومناطها هو العصمة من التقرير على باطل ، وذلك يتوقف على تحقق البطلان ، ولا يكفى فيه عدم تحقق الصحة ، إلا أن يدعى مدّع أنه يكفى فى وجوب البيان عدم تحقق الصحة ، فيحتاج إلى دليل وهو عاجز عنه . نعم : التقرير يسوغ الحلف على ذلك على غلبة الظن ، لعدم توقف ذلك على العلم .. هـ .

وفال النووي : قال العلماء : قصة ابن الصياد مشكلة ، وأمره مشتبه ، لكن لا شك أنه دجال من الدحاحلة . والظاهر أن النبی صلى الله عليه وسلم لم يوح إليه فى أمره شئ ، وإنما أوحى إليه صفات الدجال ، وكان فى ابن الصياد قرائن محتملة . فذلك كان صلى الله عليه وسلم لا يقطع فى أمره شئ ، بل قال لعمر : « لا حير لك فى قتله ... الحديث » (١) .

[١] بقى أنه بعد أن يكون الصفات التى أوحى بها إليه صلى الله عليه وسلم تجتمع فى فئ صغير كاس الصياد وفى هذا المقيد فى الجريرة . وأعرب من هذا ما ذكره نعم بن حماد شيخ البخاري فى كتاب الفتن من أحاديث كثيرة . منها ما أخرجه عن جماعة منهم شرح بن عبد الله . قالوا جميعاً : إن الدجال ليس بإسان وإماماً هو سيطان موثق بيمين حلقه . قيل موثق من عهد سليمان . قال الحافظ ابن حجر بعد نقل ما تقدم : وهذا لا يمكن معه كون ابن الصياد هو الدجال ، ولعل هؤلاء الرواة مع كونهم ثقات تلقوا ذلك من بعض أهل الكتاب .

ونقل صاحب المنار عن ابن الجوزي أنه قال^(١) : كان صلى الله عليه وسلم يتكلم بأشياء على سبيل القياس ، وهو دليل معمول به . فكانه لما نزلت عليه الآيات في قرب الساعة كقوله تعالى : « أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ » وقوله : « وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ » حمل ذلك على أنها لا تزيد على مضي قرن واحد ، ومن ثم قال في الدجال : « إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه » فجوز خروج الدجال في حياته الشريفة عليه السلام . قال السيد رشيد^(٢) - معلقاً على ذلك - : فان الجوزي يرى أنه صلى الله عليه وسلم كان يقدر في هذه المسائل تقديراً ، إذ لم يوح الله تعالى إليه بأخبارها تفصيلاً .

اجتهاده عليه السلام وأصحابه فيما يكون به الإعراس للصلاة

روى البخاري^(٣) عن ابن عمر قال : كان المسلمون حين قدموا المدينة يجتمعون فيمتحنون^(٤) الصلاة ليس ينادى لها ، فتكلموا يوماً في ذلك ، فقال

[١] في جزء ٩ من تفسير المنار صفحة ٤٦٣ .

[٢] في صفحة ٤٨٩ من نفس الجزء . ٩ .

[٣] في الجزء الثاني من كتاب الأدان ، من فتح الباري على البخاري .

[٤] أي يطلبون حينها ويتفرون في البحث عنه .

بعضهم : اتخذوا ناقوساً مثل ناقوس النصارى ، وقال بعضهم : بل بوقاً مثل قرن^(١) اليهود ، فقال عمر : أولاً تسمعون رجلاً ينادى بالصلاة ؟ ، فقال صلى الله عليه وسلم : « يا بلال اقم فناد بالصلاة » .

وفي رواية عند ابن ماجه أن النبی صلى الله عليه وسلم استشار الناس فيما يحرمهم إلى الصلاة ، فذكروا البوق فكرهه من أجل اليهود ، ثم ذكروا الناقوس فكرهه من أجل النصارى .

وفي رواية أخرى للبخارى عن أس وعن أنى الشيخ عن خالد - واللفظ لخالد - قال : فقالوا : لو اتخذنا ناقوساً ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « ذاك للنصارى » ، فقالوا لو اتخذنا بوقاً ؟ فقال : « ذاك لليهود » ، فقالوا : لو رفعنا نارا ؟ فقال : « ذاك للمجوس » .

وصح عند الترمذی وأبى داود وابن ماجه أن النبی صلى الله عليه وسلم استشار أصحابه للصلاة كيف يجمع الناس لها ؟ فقال بعضهم : انصب راية عند حضور وقت الصلاة ، وذكر بعضهم البوق وبعضهم الناقوس ، فانصرف عبد الله بن زيد وهو مهتم ، فرأى رؤيا قصها ، وقال : طاف بي وأنا نائم رجل يحمل ناقوساً في يده : فقلت يا عبد الله : أتبيع الناقوس ؟ فقال : وما تصنع به ؟

[١] شئ ينفخ فيه مثل المعروف الآن (بالفير) .

قلت ندعو به للصلاة ، فقال أفلا أدلك على ما هو خير من ذلك ؟ قلت له : بلى ! قال : تقول : الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر : الله أكبر ، الله أكبر : أشهد أن لا إله إلا الله . . . إلى آخر الأذان ، فلما أصبحت أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته بما رأيت ، فقال : « إنها رؤيا حق إن شاء الله فقم مع بلال فألق عليه ما رأيت فليؤذن به ، فإنه أندى صوتاً منك » ، فجعلت ألقيه عليه ويؤذن به ، فسمع ذلك عمر بن الخطاب وهو في بيته خرج يحرر داءه فقال : يا رسول الله ! والذي بعثك بالحق لقد رأيت مثل الذي رأى ، فقال صلى الله عليه وسلم : « فله الحمد » . قال عياض : فقول عمر في الرواية الأولى : ألا تبعثون رجلاً ينادى بالصلاة ، وقوله صلى الله عليه وسلم : « يا بلال قم فناد » المراد به الإعلام الحض محصور وقت الصلاة ، لا خصوص الأذان المشروع أحراً .

وبذلك يجمع بين رواية المحاربي ورواية الترمذي ومن معه . قال السهيلي : والحكمة في ابتداء شرع الأذان على لسان غيره صلى الله عليه وسلم التنويه ببلو قدره على لسان غيره صلى الله عليه وسلم ليكون ألحظ لشأنه .

قال الحافظ ابن حجر في شرح هذا الحديث والتعليق عليه : وقد نص الأصوليون على أنه يجوز له صلى الله عليه وسلم الاجتهاد في الأحكام ، والله يقره على ما يشاء .

قال ابن العربي : وفي الحديث دليل على مراعاة المصالح والعمل بها ، وذلك أنه لما شق عليهم التكبير للصلاة فتفوتهم أشغالهم ، والتأخير فيفوتهم وقت الصلاة ، نظروا فيما يحفظ لهم أداء الصلاة دون تعطيل أعمالهم واختلف في قصة الأذان هذه : هل كانت في السنة الأولى من الهجرة ، أو الثانية ؟ .

اجتمعوا مع أصحابه صلى الله عليه وسلم فيما يجلس عليه عند فطبة الجمعة

روى البخارى ^(١) عن سهل بن سعد ، وقد سئل : من أى شيء المنبر ؟ فقال : ما بقى بالناس أعلم مى ، هو من أثل الغابة ^(٢) ، عمله فلان مولى فلانة لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

وفي رواية للبخارى ايضاً عن أى حازم بن دينار ، قال : إن رحالا أتوا سهل بن سعد الساعدي وقد امتروا في المنبر : ممّ عوده ؟ فسألوه عن ذلك ، فقال : والله إني لأعرف ممّ هو ؟ ، ولقد رأيته أول يوم وضع ، وأول يوم جلس عليه صلى الله عليه وسلم . أرسل عليه السلام إلى فلانة - امرأة من الأنصار قد

[١] في الفتح جزء أول باب الصلاة في السطوح والمنبر وفي جزء ثان باب الحطّة على المنبر .

[٢] الغابة اسم موضع قرب المدينة وراء جبل أحد على بعد ثمانية أميال من جهة الشام وليس بها الآن شجر ولا ررع .

سمها سهل - : « مرى غلامك النجار أن يعمل لى أعواداً أجلس عليهن إذا
كلمت الناس » وأمرته فعملها من طرفاء الغابة ، ثم جاء بها ، فأرسلت إلى رسول
الله صلى الله عليه وسلم ، فأمر بها فوضعت هاهنا :

وأخرج ابن سعد عن ابن عباس ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم
يخطب إلى خشبة ، فلما كثر الناس قيل له : لو كنت جعلت منبراً ! قال :
وكان بالمدينة نحار يقال له ميمون ، فأرسل إليه صلى الله عليه وسلم أن يعمل له
أعواداً يجلس عليها . . . الحديث .

وأخرج أبو داود عن نافع عن ابن عمر أن تمياً^(١) الدارى قال لرسول
الله صلى الله عليه وسلم - لما كثر لجه - : ألا ننحذ لك منبراً يحمل عظامك ؟
قال : « بلى » ، فاتخذوا له منبراً .

وروى ابن سعد - فى الطبقات - من حديث أبى هريرة أن النبى صلى
الله عليه وسلم ، كان يخطب وهو مستند إلى جذع ، فقال : إن القيام قد شق
على ، فقال له ميم الدارى : ألا أعمل لك منبراً كما رأيت يصنع بالشام ؟ فشاور
النبى صلى الله عليه وسلم المسلمين فى ذلك ، فرأوا أن يتخذوه .

قال الحافظ ابن حجر فى التعليق على ذلك : وقد علم مما تقدم سبب عمل

[١] تقدم أنه كان بصرايا وأسلم .

المنبر، وهو أنه : إما كثرة الناس ، وإما زيادة جسمه صلى الله عليه وسلم في آخر حياته ، فصار يشق عليه طول القيام ، فيخطب جالساً كما يستفاد من رواية أبي هريرة المتقدمة ^(١) .

رأى سلمان الفارسي عمل خندق حول المدينة في غزوة الأضراب وأقره صلى الله عليه وسلم على ذلك

نقل الحافظ ابن حجر عن أصحاب المغازي قالوا : قال سلمان الفارسي للنبي صلى الله عليه وسلم : إنا كنا بفارس إذا حوصرنا حندقنا علينا ، فأمر صلى الله عليه وسلم بحفر الخندق حول المدينة ، وعمل فيه بنفسه ترغيباً للمسلمين فسارعوا إلى عمله حتى فرغوا منه قبل مجئ المشركين .

صلى بعض أصحابه صلى الله عليه وسلم العصر قبل غروب الشمس ، وبعضهم بعد الغروب فأقر صلى الله عليه وسلم الجميع بوم قرينة

روى البخاري عن ابن عمر قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب : « لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة » فأدرك بعضهم العصر

[١] وكان عمل المنبر ستة ثمان من الهجرة ، وكان من ثلاث درجات .

في الطريق ، فقال بعضهم : لا يصلي حتى تأتيها ، وقال بعضهم : بل نصلي ! ، لم يرد منا ذلك . فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم ، فلم يعنف أحداً منهم .

وقال ابن إسحاق : لما انصرف النبي صلى الله عليه وسلم من الخندق راحماً إلى المدينة أتاه جبريل الظهر فقال : إن الله يأمرك أن تسير إلى بني قريظة ، فأمر بلالاً فأذن في الناس : « من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلي العصر إلا في بني قريظة ... الخ » .

قال الحافظ ابن حجر : وحاصل ما وقع في القصة ، أن بعض الصحابة حملوا النهي على حقيقة ولم يبالوا بخروج الوقت ترجيحاً للنهي الثاني - الذي هنا - على النهي الأول ، وهو النهي عن تأخير الصلاة عن وقتها . والبعض الآخر حملوا النهي على غير الحقيقة ، وقالوا : إنه كناية عن الحث والاستعجال والإسراع إلى بني قريظة ، فبادروا إلى امتثال أمره الثاني . وحصوا وقت الصلاة من ذلك لما تقرر عندهم من تأكيد أمرها ، والمحافظة على أداؤها في وقتها ، فلا يمتنع أن يزلوا فيصلوا ، ولا يكون في ذلك منافاة لما أمروا به .

وقال السهيلي : في هذا الحديث من الفقه : أنه لا يعاب على من أخذ بظاهر حديث أو آية ، ولا على من استنبط من النهي معنى يخصه ، وأن كل محتلمين في الفروع من المجتهدين مصيب .

رأى صلى الله عليه وسلم عدم الخروج إلى أحد^(١) ، ورأى أصحابه
الخروج إليها فنزل على رأيهم

جاء في البخارى ومسلم وأحمد والنسائى ما لخصه ابن كثير فى التاريخ عن
سبب غزوة أحد مما يأتى : قال :

إن أبا سفيان لما وُتر يوم بدر صار يؤلب القبائل على المسلمين حتى حاء فى
شوال من السنة الثالثة الهجرية ونزل بعينين^(٢) على شفير الوادى مقابل
المدينة . فعلم به عليه السلام وأصحابه ، فتحمس للقائه شمان لم يشهدوا بدرًا ،
ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى ليلة الجمعة رؤيا فلما أصبح قصها على
أصحابه ، فقال : « رأيت البارحة فى منامى بقرًا تذبح ، ورأيت سيفي به فلول
فكرهته ، وهما مصيبتان ، ورأيت أنى فى درع حصينة ، فأولت البقر التى
تذبح فقرأ من أصحابي يقتلون ، والثلم الذى فى سيفي رجلا من أهل بيتي يقتل ،
والدرع الحصينة المدينة ، فامكثوا فى داخل المدينة ، فإن دخل علينا القوم فى
الأزقة قاتلناهم ، وارموا من فوق البيوت » ، فقال الذين لم يشهدوا بدرًا : كنا

[١] وكات واقعة أحد فى شوال سنة ثلاث من الهجرة .

[٢] فى القاموس : عين بكسر العين ، جبل بأحد .

نتمنى هذا اليوم وندعو الله ، فقد ساقه الله إلينا ، وقرب المسير فمضى نقاتلهم إذا لم نقاتلهم عند شعبنا ؟ وأبى كثير من الناس إلا الخروج إلى العدو . فلما صلى رسول الله عليه السلام الجمعة وعظ الناس وأمرهم بالجهاد ، ثم انصرف من صلاته إلى بيته ، ودعا بِلَأْمَتِهِ^(١) فلندسها ، ثم أذن في الناس بالخروج فلما رأى ذلك رجال من ذى الرأى قالوا : أكرهنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أعلم بالله وما يريد ، ويأتيه الوحي من السماء ، فقالوا : يا رسول الله ! امكث كما أمرتنا ، فقال : « ما ينبغي لنبى إذا لبس لأمة الحرب أن يصعبها حتى يقاتل ، وقد دعوتكم إلى هذا الحديث فأبىتم إلا الخروج ، فعليكم بتقوى الله ، والصبر عند البأس إذا لقيتم العدو » .

وروى البخارى^(٢) عن أبى موسى الأشعرى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : رأيت فى المنام أنى أهاجر من مكة إلى أرض بها نخل فذهب وهلى^(٣) إلى أسها اليمامة ،^(٤) أو هجر^(٥) فإذا هى المدينة يثرب ، ورأيت فيها بقرأ وخيراً

[١] اللأمة درع من حديد يلبس على الرأس .

[٢] فتح البارى جزء ١٢ (كتاب التفسير ، باب : إذا رأى نقرأ يدب) .

[٣] قال النووى : وهل الوهم والاعتقاد . وقال الحافظ ابن حجر : وهل نفتحتين أى ظن ، يقال : وهل يهل بالسكسر وهلا بالسكون إذا طس شيئاً فبين خلاه .

[٤] أقلم بينه وبين البحرين عشرة أيام بالليل قال ياقوت : اليمامة معدودة من مجسد ، وقاعدتها حجر ، فيها طهر مسيلة السكذاب .

[٥] هجر : نفتحتين بلد من بلاد البحرين ومن مساكن عمدة القيس . وقال ياقوت : هجر من بلاد اليمن وقال ابن حجر : وهذا أولى بالتردد بينها وبين اليمامة لأن اليمامة بين مكة واليمن .

فإذا هم المؤمنون يوم أُحُد ، وإذا الخير ما جاء الله به من الخير .

(وهذا الحديث - الذى رواه البخارى - يدل على أن اجتهاده صلى الله

عليه وسلم امتد حتى شمل تعبير الرؤيا ، وأنه ظهر على خلاف ما ظن .

اجتهاد أصحابه صلى الله عليه وسلم بحضرته فى قتال أهل الطائف
واقراءه صلى الله عليه وسلم لهم

نقل صاحب زاد المعاد^(١) عن ابن سعد قال : لما طال حصاره صلى الله عليه وسلم لأهل الطائف وهم محصنون بداخله ، لا يستطيع أحد اقتحامه عليهم ، استشار عليه السلام نوفل بن معاوية الديلى ، فقال : « ما ترى » ؟ قال نوفل : ثعلب فى جحر ، إن أقمت عليه أخذته ، وإن تركته لم يضرك ، فأمر صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب فأذن فى الناس بالرحيل ، فضج الناس من ذلك ، وقالوا : رحل ولم يفتح علينا الطائف ؟ فقال عليه السلام : « فاعدوا على القتال » فعدوا فأصابت المسلمين جراحات ، فقال صلى الله عليه

[١] انظر زاد المعاد فى حصار الطائف .

وسلم : « إنا قافلون غداً إن شاء الله » فسروا بذلك وأذعنوا ، وجعلوا يرحلون
ورسول الله صلى الله عليه وسلم يضحك^(١) .

ومما جاء من هذا النوع ما رواه^(٢) مسلم في صحيحه عن أس بن مالك :
أن الرجل^(٣) كان يجعل للنبي صلى الله عليه وسلم النخلات^(٤) من أرضه حتى
فتمت عليه السلام قريظة والنصير ، فجعل بعد ذلك يرد عليه^(٥) ما كان
أعطاه ، قال أس : وإن أهلى أمرى أن آتى النبي صلى الله عليه وسلم فأسأله
ما كان أعطوه أو بعصه ، وكان نبي الله عليه السلام قد أعطاه أم أيمن^(٦) .
فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم فأعطانيهن ، فجاءت أم أيمن فجعلت الثوب
في عنقي وقالت : والله لا نعطيكهن وقد أعطانيهن - أى رسول الله عليه
السلام - فقال صلى الله عليه وسلم : « يا أم أيمن ! أتركيه ولك كذا وكذا »
وتقول : كلا ! والذى لا إله إلا هو ، فجعل صلى الله عليه وسلم يقول :
« لك كذا وكذا » حتى أعطاه عشرة أمثاله أو قريباً من عشرة أمثاله .

[١] ومن هذا يعلم أن الصحابة رضى الله عنهم كانوا يعرفون أنه عليه السلام كان يجهل
بقول الرأى من نفسه ، لاعت وحى فكانوا يباقشون ويتحجرون . وقد يظهر فما بعد أهم
محطون أو مصيرون .

[٢] مسلم نسخة المتن المبرى جزء ٥ صفحة ١٦٢ فى كتاب الجهاد والسير .

[٣] أى من أهل المدينة من الأنصار .

[٤] أى على سبيل العارية كما سبأى يتمتع بثمارها ويردها اذا استعنى عنها .

[٥] أى على الرجل من الأنصار .

[٦] أم أيمن كانت جارية لعبد الله بن عبد المطلب والده عليه السلام وكانت من الحبشة .
ولمسا ولد صلى الله عليه وسلم كانت تحضنه .

وفى رواية أخرى لمسلم عن أنس أيضاً بلفظ : لما قدم المهاجرون من مكة إلى المدينة قدموا وليس بأيديهم شئ ، وكان الأنصار أهل الأرض والعقار^(١) فقام بينهم الأنصار على أن أعطوهم أنصاف ثمار أموالهم كل عام ، ويكفونهم العمل والمثونة ، وكانت أمى - أم أنس وتدعى أم سليم - أعطت رسول الله صلى الله عليه وسلم عداقاً^(٢) لها ، فأعطاها رسول الله صلى الله عليه وسلم أم أيمن مولانته أم أسامة بن زيد . فلما فرغ صلى الله عليه وسلم من قتال أهل حدير وانصرف إلى المدينة رد المهاجرون إلى الأنصار من ثمارهم التي كانوا منحوهم ، فرد صلى الله عليه وسلم إلى أمى عداقها ، وأعطى أم أيمن مكاهن من حائطه .

قال النووي فى شرحه على مسلم : قال العلماء : لما قدم المهاجرون آثارهم الأنصار بمنائح^(٣) من أشجارهم فمنهم من قبلها منيحة محصة^(٤) ومنهم من قبلها بشرط أن يكون له نصف الثمار فقط ، نظير أن يعمل فى حدة الأرض والشجر ولم تطب نفسه أن يقبلها منيحة محصة كراهة أن يكون كلاً على غيره . ولما

[١] أراد بالعقار هنا البعل . قال الزجاج : العقار كل ماله أصل .

[٢] العداق جمع عداق على وزن حبل وحبال ومعناه محلات .

[٣] المنائح جمع منيحة على وزن دنايح وديحة هى كل ما منحته لعبيرك ليندفع بعلته ثم رده إليك عند استئثانه عنه ، فحة الإبل والعم يتنعم بلبها ووبرها وصوفها ، ومنحة النحل يتنعم بشمرها .

[٤] أى يتنعم بكل ثمارها لنفسه .

فنبحت عليهم حير استغنى المهاجرون بأصباؤهم فيها عن تلك المنافع فردوها إلى الأنصار . وقد كان الأنصار أعطوا المهاجرين هذه الأشجار يتصرفون فيها كما يشاءون من أكل وإيثار للغير وصدقة دون الميع ، ولهذا أثر النبي عليه السلام أم أيمن . ولو كانت إباحته له خاصة لما أباحها لغيره . ولما كانت رقاب الأشجار لأصحابها صح إرجاعها لهم ، لأنها لو كانت هبة للرقاب لما جاز الرجوع فيها .

أُتِيَ عَلَيْهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَصْحَابُهُ بِأَتَاخِذِ الْخَاتَمِ فَاتَّخَذَهُ

روى البخاري ^(١) عن أس بن مالك قال : لما أراد النبي عليه السلام أن يكتب إلى الروم قيل له : إنهم لا يقرءون كتاباً إلا أن يكون مختوماً ، فاتخذ خاتماً من فصّة فكأى أنظر إلى بياضه في يده ونقش عليه : محمد رسول الله .



[١] في كتاب الحياذ - باب دعوة اليهود والنصارى - .

خاتمه

الآن قد ذكرنا من الأمثلة والشواهد ما يدل على وقوع الاجتهاد منه صلى الله عليه وسلم منوعاً حسب طبيعة الإنسان ؛ فرأيناه اجتهاداً وعبر عن اجتهاده بالقول مرة ، والعمل والفعل أخرى ، وإقرار رأى بعض صحابته أو عدم إقراره إياه ثالثة .

والاجتهاد منه إذن مؤكد الوقوع ، سواء أكان عن طريق القرآن الكريم أو السنة الصحيحة .

وموضوع اجتهاده عليه السلام لم يكن خاصاً بموضوع معين ولا بوقت ومكان ؛ بل تناول عدة أمور من واقع حياته وحياة المؤمنين معه ، وما لم يكن من واقع حياته وحياة المؤمنين معه كذلك - كما في حديث نسل المسوخ^(١) وحديث عذاب القمر^(٢) - وامتد إلى تعبير الرؤيا^(٣) بل رأى بعض العلماء أنه تناول فهم القرآن وحنن لا نقر ذلك الرأى لما فيه من الخطورة^(٤) ، وحدث في أزمنة متعددة وأمكنة مختلفة .

كما لم يكن رأيه عليه السلام فيما اجتهد فيه ، يمثل الصواب دائماً ولا محل رضا الله تعالى عنه ، دائماً كذلك ، كما أن تصويب الخطأ في رأيه من المولى

[١] ص ٦٠ ، ٦١ من هذا الكتاب .

[٢] ص ٦٨ ، ٦٩ من المصدر السابق .

[٣] ص ١٥٩ من المصدر السابق .

[٤] ص ١١٨ ، ١٢٦ من المصدر السابق .

جل شأنه ، أو منه عليه السلام أو من صحابته ، لم يكن دائماً أبداً عقب ظهور الرأى مباشرة ؛ بل قد كشفت الأيام عن خطأ هذا الرأى فى بعض الأحيان ، أو كان سبباً فى أن عاتبه عليه مولاة جل شأنه ، أو وقع التصويب بعد فترة زمنية تقصر وتطول ، مما لا يدع شكاً فى أن الرسول بشر يجوز عليه - عدا ما حصه به الله - ما يجوز على أى بشر آخر .

فالفصول الثلاثة من الباب الثانى تصور فى جملتها تنوع اجتهاده صلى الله عليه وسلم ، وبالتالى تصور وقوع اجتهاد منه ، وفى غير أمر واحد وغير زمان واحد ، وغير مكان واحد .

وفى أبداء عليه السلام من رأى فى تلقيح الفحل^(١) أظهرت الأيام عدم نفعه لمن أخذوا به - كما لم يحى وحى بشأنه - . والله سبحانه وتعالى إذ يوافقه على ما رأى وطلب^(٢) بقوله : « قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا » ، لا يوافقه^(٣) على ما رأى وطلب فى ناحية أخرى ، كما جاء فى قوله : « قَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُ لِيَحْزُنَكَ الَّذِينَ يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَئِنْ الظَّالِمِينَ بَأْيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ... » ؛ بل قد يعاتبه^(٤) - وأحياناً يشتد

[١] ص ١٠٦ من المصدر السابق .

[٢] ص ٧١ من المصدر نفسه .

[٣] ص ٧٣ من المصدر السابق .

[٤] صفحات : ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٥ ، ٩٣ ، ١٠٣ من المصدر السابق .

فى العذاب - على ما رأى عليه السلام مثل ما جاء فى قوله تعالى : « وَتَحْشَى
النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَحْشَاهُ » ، وفى قوله : « فَلَمَّا لَكَ تَارِكٌ نَعَضَ مَا نُوحَى
إِلَيْكَ ... الآية » ، وفى قوله : « وَإِنْ كَادُوا لَيَمْتَنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوحِيَ
إِلَيْكَ لَتَمَتَّرِيَّ عَلَيْنَا غَيْرَهُ ... الآية » ، وفى قوله : « عَمَّا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ
أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَّبِعِينَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا . » ، وفى قوله : « لَنْسَ لَكَ مِنْ
الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ... » .

وفىما نقل عنه عليه السلام تعديلا لرأيه الأول فى حديث النهريق بالنار^(١)
- فى رواية البخارى عن أبى هريرة - ، وفىما أوحى إليه من الله جل شأنه
فى أمر عذاب القبر^(٢) - فى رواية مسلم عن عائشة - ، وفىما ذكره تعالى اسمه
إجابة لما رأى وطلب^(٣) فى شأن القبلة - فى سورة البقرة - يدل على وجود
فترة زمنية لا يعرف مقدارها على وجه الدقة بين الرأى ومجىء الصواب به أو
بين الطلب وإجابته .

- ١ - فالاجتهاد جاز على الرسول صلوات الله عليه إذن ، لأنه وقع منه .
- ٢ - وموضوعه ممنوع ، دينى أو دنيوى ، مغيب أو مشاهد ، كما يؤخذ
من الروايات المذكورة .

[١] ص ٨٢ من المصدر السابق .

[٢] ص ٦٨ من المصدر السابق .

[٣] ص ٧١ من المصدر السابق .

٣ — وليس بلازم أن يكون رأيه عن اجتهاد صواباً على الدوام ، كما رأينا ذلك فيما مضى غير مرة ،

٤ — وليس بلازم أيضاً أن يقع التصحيح للرأى الخطأ فوراً ،

٥ — كما يجوز أن لا يرد له تصحيح ما على الإطلاق — كما في حديث تأبير النخل .

٦ — كما يحتمل أن يكون سكوته عليه السلام على رأى بعض صحابته موافقة عليه أو انتظاراً لما يأتى به الوحي — كما في حديث ابن الصياد —

ونحن لا نهدف في كتابنا هذا إلا إلى المحافظة على مقام الألوهية من أن يقنحه أو يدنو منه أحد من خلق الله مهما عظمت منزلته ، كما عمل لذلك خاتم الأنبياء وسيد الأبرار نبينا محمد صلى الله عليه وسلم .

فمحمد عليه السلام هو ابن عبد الله بن عبد المطلب من قريش ، وهو رسول الله . هو إسان أوحى إليه ، لم يخرج الوحي عن إنسانيته ، ولم تتعد طبيعته الإنسانية إلى دائرة ما أوحى به إليه . وهو المنزل عليه :

« قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُسْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا »
« صدق الله العظيم »
والحمد لله رب العالمين

فهرس

الصفحة

الإهداء	٣
إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه
مقدمة	٥
عناية الإسلام بدعوة التوحيد ، وأمانة ذلك على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم ، تأكيد الرسول الكريم للمؤمنين أنه بشر مثلهم ومقتنه أن يطرى منهم كما كان يطرى ابن مريم من النصارى
الباب الأول	١٧
في اجتهاد الأنبياء
الفصل الأول	١٩
مظاهر الإنسانية فى الرسول ، الاجتهاد واحد من هذه المظاهر

الصفحة

٢٩ الفصل الثاني

رأى بعض العلماء فى اجتهاد الأنبياء :

٢٩ الجبائى لا يرى جواز الاجتهاد على الأنبياء ، دليـله
 ومناقشة هذا الدليل
 آراء المجوزين :

- ٣١ (ا) رأى ابن حزم الأندلسى
- ٣٤ (ب) « ابن تيمية
- ٤١ (ح) « القاضى عياض
- ٤٤ (د) « ابن حـلدون
- ٤٦ (هـ) « السـكـال بن الهمام

٥٢ الفصل الثالث

فى وقوع الاجتهاد من الأنبياء قبل نبينا صلى الله عليه
 وسلم وبعض أمثلة على ذلك :

٥٥ الباب الثانى

. فى اجتهاد الرسول صلى الله عليه وسلم

الصفحة

الفصل الأول ٥٧

- فيما بدا من اجتهاده صلى الله عليه وسلم في صورة القول تمهيد . . فيما كان موضوع الاجتهاد ، وأوصافه ٥٧
- (١) ما بدا من اجتهاده في صورة الظن ، وبعض الأحاديث الدالة على ذلك ٦٠
- (ب) ما بدا من اجتهاده في صورة القطع ، وبعض الروايات المؤيدة لذلك ٦٣
- (ح) ما بدا من اجتهاده في صورة التمى ، ومظهر ذلك في ما نقل عنه صلى الله عليه وسلم . . . ٧١
- (د) ما بدا من اجتهاده في صورة هم ولم يفعل ، وآية ذلك فيما ترويه الكتب الصحيحة ٧٨
- (هـ) ما بدا من اجتهاده في صورة الطلب ، وما يرويه الشيخان ويذكره القرآن الكريم فيه . . ٨٢
- (و) ما بدا من اجتهاده في صورة الإذن ، ومظهر ذلك في السنة وكتاب الله ٩٢

الصفحة

(ز) ما بدا من اجتهاده في صورة الدعاء . . . ١٠٢

(ح) » » تفضيل الترك على العمل ١٠٦

(ط) » » النهي العام ١١٢

(ى) » » الاستغفار لمعض المناقير ١١٤

الفصل الثانى ١٢٧

فما بدا من اجتهاده في صورة العمل ، وبعض أمثلة
على ذلك :

(١) صلاته على عبد الله بن أبى ابن سلول ١٢٧

(ب) أحذه الفداء من أسرى بدر ١٢٨

(ح) عبوسه في وجه ابن أم مكتوم الأعشى ١٣١

(د) سوقه الهدى ١٣٤

(هـ) دحوله في جوف الكعبة ١٣٥

(و) كناية شروط الصلح مع قائد غطفان يوم ١٣٦

الخندق بإذنه

الفصل الثالث ١٣٨

فما بدا من اجتهاده صلى الله عليه وسلم في صورة

الصفحة

- الإقرار أو عدم الإقرار لأراء أصحابه رضوان الله عليهم
- (١) ما حصل يوم بدر ، وموافقته صلى الله عليه وسلم ١٣٨
 لرأى الحباب بن المنذر
- (ب) ما حصل في غزوة حنين ، وموافقته صلى الله عليه وسلم ١٣٩
 عليه وسلم لرأى أنى بكر رضى الله عنه . . .
- (ح) إقراره عليه السلام من رقى بالفاخرة على أحد الأجر ١٤١
- (د) عدم إقراره صلى الله عليه وسلم من صلى بصلاته ١٤٣
 في قيام رمضان
- (هـ) سكوبه عليه السلام على حلف عمر رضى الله عنه ١٤٥
 في قصة ابن الصياد
- (و) مشاركته عليه السلام أصحابه الاجتهاد فيما يكون ١٥٠
 به الاعلام للصلاة
- (ز) مشاركته عليه السلام أصحابه الاجتهاد فيما يجلس ١٥٣
 عليه عند خطبة الجمعة
- (ح) إقراره صلى الله عليه وسلم رأى سامان العارسي ١٥٥
 عمل حندق في غزوة الأحزاب

- ٥ (ط) إقراره صلى الله عليه وسلم أصحابه رضوان الله
عنه صلاتهم العصر يوم قريظة
- ٧ (ي) نزوله عليه السلام على رأى أصحابه رضوان الله
عنه الخروج إلى أحد
- ٩ (ك) إقراره صلى الله عليه وسلم اجتهد أصحابه
في قتال أهل الطائف
- ٣ خاتمة
- ٩ الفهرس
- ٥ جدول الخطأ والصواب

والحمد لله أولاً وآخراً

جدول الخطأ والصواب

الخطأ	الصواب	رقم الصفحة	السطر
بالإمامة	الإمامة	٣٧	١٧
وأبى	فأبى	٦١	٥
كما لاقى حقه	كما لا فى حقه	٧٥	١٠
(العزم والهم)	الهم	٧٨	١٣
فى صورة (عزم)	فى صورة (هم)	٨٠	٥
فى صورة (الزم)	فى صورة (الهم)	٨٢	٦
ثم آتيناها	ثم أتيناه	٨٢	١٣
يفتضحوا	يفتضحوا	٩٤	٤
يتدرج	يستدرج	٩٧	٦
المألوف فى	المألوف من	٩٧	٨
صحيحهما	صحيحهما	٩٩	٩
تعديلا	تعديل	١٠٠	٥

رقم الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٠٠	١٣	فساعدتها	فأسعدتها
١٠١	١١	كان أئى	كان أئى
١١٥	٨	إليه مات منفاق	إليه منفاق
١١٥	١٧	هذين الجزأين	هذين الخبرين ^(١)
١١٥	١٩	فى الجزء الأول	فى الخبر الأول
١٣٦	١٢	تصفه	تصنعه
١٣٦	١٣	أصفه	أصنعه

(١) المراد بالخبرين حديث ابن عمر وحديث ابن عباس

